دراسات في السيرة النبوية

قسم الدراسات الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي أرسل الرسل هداة على طريق الرشاد، وأمدهم بكامل الإمداد، حتى بددوا ظلمات الشرك والعناد، والصلاة والسلام على خاتم الرسل نبينا محمد البدر الوقاد، الذي بلغ الدين بأقواله وأحواله ووقائع أيامه حتى انتصر الحق وساد، وعلى آله وأصحابه ومن تبع نهجه إلى الميعاد... وبعد.

فإن دراسة السيرة النبوية من أنفع ما ينفق فيه طالب العلم وقته، ويشغل به زمنه، وذلك لأن شرف العلم من شرف المعلوم، وصاحب السيرة أشرف الخلق على الإطلاق، فهو صاحب الرسالة الخاتمة، ورمز الخلق الرفيع، والمختص بالشفاعة يوم يَمْثُل العباد في ساحة الحساب، كما أن السيرة النبوية منبع هداية وإرشاد، وليست مجرد وقائع وروايات، وقَصَص وحكايات، حيث كانت تطبيقا عمليا لتعليمات الوحي الإلهي، ومنهج حياة أظهره الله لعباده في سيرة النبي ﷺ مع أصحابه، فلا يعدم الناظر في كتب السير من استخلاص الحكم والعبر، بل والشرائع والأحكام.

وانطلاقا من هذه الأهمية توجهت عناية جامعة الملك سعود إلى تخصيص أحد مقررات متطلبات الجامعة من مقررات الثقافة الإسلامية لدراسة السيرة النبوية المطهرة. ولما كانت أحداث السيرة من الكثرة بحيث لا يمكن جمعها في مقرّر من مقرَّرات الإعداد العام؛ عمدت اللجنة المشرفة إلى الوقوف في بعض محطات السيرة العطرة؛ وقوفا يسيرا ينهل فيه الطالب من دروس السيرة وهدايتها، ويتزوّد من نورها وبركتها، حتى يكون

موصولاً بأيام نبيه ﷺ وسيرته.

وانطلاقاً من هذا المنهج، تم تقسيم المقرر إلى اثنتي عشرة وحدة تعليمية على النحو الآتي:

- الوحدة الأولى: مفهوم السيرة النبوية ومصادرها، وحال العرب قبل البعثة.
- الوحدة الثانية: مولد النبي المصطفى ﷺ وما سبقه من مبشرات.
- الوحدة الثالثة: حياته ﷺ من الطفولة إلى البعثة.
- الوحدة الرابعة: بعثة النبي ﷺ وبدايات الدعوة.
- الوحدة الخامسة: من رحلة الإسراء والمعراج إلى الهجرة النبوية.
- الوحدة السادسة: أحداث وتشريعات شكلت ملامح المجتمع الإسلامي في المدينة.
- الوحدة السابعة: الغزوات والسرايا الأولى.
- الوحدة الثامنة: غزوات: بني النضير، والخندق، وبني قريظة.
- الوحدة التاسعة: صلح الحديبية وأثره في بداية الدعوة العالمية.
- الوحدة العاشرة: غزوة الفتح.
- الوحدة الحادية عشرة: غزوة تبوك وحجة الوداع.
- الوحدة الثانية عشرة: مرض الرسول ﷺ ووفاته.

والله نسأل أن ينفع به إنه هو الموفق والمستعان.

***

الوحدة الأولى

مفهوم السيرة النبوية ومصادرها

وحال العرب قبل البعثة

أخي الطالب/ أختي الطالبة:

يتوقع – بعد دراستك لهذه الوحدة – أن تكون قادرا على:

١ – معرفة مفهوم السيرة النبوية وأهمية دراستها.

٢ – بيان حال العرب قبل الإسلام.

٣ – استشعار مكانة مكة عند العرب.

تعريف السيرة النبوية ومصادرها وفوائد دراستها

أولاً: تعريف السيرة النبوية.

السيرة في اللغة: الطريقة، يُقال: سار بهم سِيرة حسنةً، كما تُطلق ويُراد بها الهيئة، ومن ذلك في التنزيل العزيز، قوله تعالى: ﴿ **سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ** ﴾ (طه: ٢١). ويُقال: سَيَّرَ سِيرَةً: حَدَّثَ أَحاديث الأَوائل[١].

والسيرة النبوية، مأخوذة من السيرة؛ بمعنى الطريقة، وأدخل فيها الغزوات وغير ذلك إلحاقا أو تأويلا»[٢].

أما في الاصطلاح فهي: ذِكْر أحداث حياة النبي ﷺ من مولده إلى وفاته، وما يتعلق بذلك من أشخاص ووقائع، مع ترتيبها ترتيبا زمنيا[٣].

ثانياً: مصادر السيرة النبوية:

تنقسم مصادر السيرة النبوية إلى قسمين هما:

(أ) مصادر أصلية، وهي: القرآن الكريم، وكتب الحديث النبوي، وكتب المغازي والسير، وكتب الشمائل، وكتب دلائل النبوة والمعجزات، وكتب الخصائص النبوية.

(ب) مصادر تكميلية. وهي: بعض كتب البلدان الخاصة بمكة والمدينة، وكتب التراجم والطبقات الخاصة بالصحابة، والأنساب، ودواوين الأدب والشعر، وغيرها مما يتحدّث عَرَضا عن سيرة الرسول ﷺ.

---

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة «سير».

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضى الزبيدي، مادة «سير».

(٣) انظر: بحث: مصادر السيرة النبوية بين المحدثين والمؤرخين، للدكتور: عطية مختار عطية حسين، ص (٦).

ثالثاً: فوائد دراسة السيرة النبوية:

دراسة السيرة النبوية الشريفة تحقق فوائد عظيمة، من أهمها الفوائد، ما يأتي:

١ – إدراك حاجة البشرية لرسالة محمد ﷺ وعالمية تلك الرسالة.

٢ – الوقوف على التطبيق العملي الأمثل للإسلام.

٣ – معرفة المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله، وهو المنهج النبوي.

٤ – الوقوف على الجانب العملي التطبيقي للإسلام من قبل الرسول ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم.

٥ – معرفة شمائله ﷺ وخصائصه ودلائل نبوته ومعجزات.

٦ – معرفة أبعاد مشروعية الجهاد في سبيل الله، ودوافع الفتوحات الإسلامية.

***

حال العرب قبل البعثة

أولاً: الحالة الدينية للعرب قبل البعثة[1]:

كان العرب قبل ظهور الإسلام يعيشون عهدا وثنيا لا مثيل له، فكانوا يحجون إلى الأصنام، ويطوفون بها، ويقدِّمون لها القرابين، ويستقسمون عندها بالأزلام، حتى أصبحت الكعبة وهي بيت الله مقرا للوثنية، إذ كان في جوفها وفنائها ثلاثمائة وستّون صنما، وكان أعظمها عندهم هبل، وهو تمثال من العقيق الأحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، وقد أدركته قريش كذلك، فصنعت له يدًا من ذهب، وكان على

(١) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (١/٧٨)، والسيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي، ص (١٤٨، ٢٦٢)، وتلبيس إبليس، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، ص (٥٥).

بئر في جوف الكعبة[1]، وكان أمام البيت صنمان: إساف، ونائلة، ينحرون، ويذبحون عندهما.

وكان لكل قبيلة صنم تدين له بالعبادة، فكانت مناة على ساحل البحر لأهل المدينة، وكان الأوس والخزرج أشدّ إعظاما لها من غيرهم، كما كانت اللّات لثقيف بالطائف، والعُزَّى فوق ذات عِرْق[2]. وكان إلى جانب هذه الأصنام الكبيرة عدد لا يحصى كثرة من الأصنام الصغيرة التي يسهل نقلها في الأسفار ووضعها في البيوت، فكان لكلّ بيت في مكة صنم خاصّ يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً، وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العُطاردي قال: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا آخر هو أخيرُ منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جُثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة، فحلبناه عليه، ثم طفنا به»[3].

وكانت إلى جانب هؤلاء الوثنين فئة قليلة يُسمُّون الحنفاء، أنكروا عبادة الأوثان، وعبدوا الله على ما بقي من دين إبراهيم عليه السلام، ومن هؤلاء الحنفاء: قُس بن ساعدة الإيادي، الذي كان يؤمن بالبعث ويدعو إلى توحيد الله وعبادته، وترك عبادة الأوثان، ومنهم أيضا، زيد بن عمرو بن نفيل، وكان لا يأكل ما ذبح على الأنصاب[4].

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: غزوة أحد، رقم الحديث (٤٠٤٣).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: غزوة أحد، رقم الحديث (٤٠٤٣).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: وفد بني حنيفة، رقم الحديث (٤٣٧٦).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (١/ ٢٢٤).

وإضافة إلى هؤلاء كان للنصرانية وجود في نجران، وفي الغساسنة، وقبائل تَغْلب وطَيء، وكان لليهودية وجود في يثرب وخيبر. وسبب ذلك أن هذه الديانات لقيت اضطهادا في مهدها، فأوت إلى مواطن في الجزيرة.

ثانياً: الحالة السياسية للعرب قبل البعثة:

لم يجتمع العرب قديما على دولة واحدة حتى في الممالك المتحضرة التي نشأت بالجزيرة، كمملكة اليمن، ومملكة الحيرة في الشمال الشرقي، بل كان العرب ينقسمون إلى بدو، وحضر.، ويسود بينهم النظام القبلي الذي كان يحملهم على التنافس فيما بينهم من أجل الحصول على الشرف والزعامة وتوسيع النفوذ، ومن ثم كانت تنشب المعارك بينهم لِأَوْهَى الأسباب.

وكانت كل قبيلة لها قانون عرفي ينظم العلاقات بين الفرد والجماعة، على أساس من التضامن في الحقوق والواجبات، وكان على رأس كل قبيلة زعيم يختار بناء على صفاته ومنزلته، وكان له حقوق أدبية تتمثل في احترامه، وتبجيله، والاستجابة لأمره، والنزول على حكمه وقضائه، وأخرى مادية تتمثل في «المرباع» وهو: ربع الغنيمة، «والصفايا» وهو: ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة، (والنشيطة) وهي: ما أصيب من مال العدو قبل اللقاء، (والفضول) وهو: ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة[1]، وكان عليه إزاء هذه الحقوق واجبات كثيرة، ومسؤوليات ضخمة، فهو في السِلم مسؤول عن إكرام الضيوف، وإغاثة المحتاجين من أبناء القبيلة، وإجارة المستجير، وفي الحرب يتقدم الصفوف، ويعقد الصلح، والمعاهدات.

(١) البيت من قصيدة لعبد الله بن غنمة الضبي يخاطب فيها بسطام بن قيس، سيد شيبان. انظر: الكامل في التاريخ، لابن الأثير (١/٥٥٠).

وكانت الحريّة تسود النظام القبلي، وتمثل أخصّ خصائص العرب الذين ويأبون الضيم والذل[1].

ثالثاً: الحالة الاجتماعية والأخلاقية للعرب قبل البعثة:

كانت العادات والتقاليد الموروثة عن الآباء والأجداد شريعة متبعة عند العرب، وكانت العصبية القبلية ركنًا من أركان حياتهم الاجتماعية حتى إن الفرد من أفراد القبيلة كان يقف مع أخيه في السِلْم والحرب والرُّشد والغَيّ على السواء!، وكانت حياتهم الثارات والغارات والنهب والسلب، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقض عليها قبيلة أخرى في ساعة من ليل أو نهار؛ لتسلب أموالها ومؤنها، وتدع ديارها خاوية.

وكانت الحروب تدور بينهم لأتفه الأسباب، وتدوم أعواما طويلة؛ كحرب البسوس التي قامت بين بكر وتغلب أربعين عاما من أجل ناقة، حتى أكلت الكثير من أبطالهم ورؤسائهم.

وبلغت قساوة العرب إلى حد ذبح الأبناء على النّصب والأوثان، وقتل الأولاد خشية الفقر، ووأد البنات خشية العار.

وكانت الخمر والميسر والتعامل بالربا من معالم الحياة الجاهلية، فكان شرب الخمر من المفاخر التي يتسابقون في مجالسها، حتى نسجوا في كثير من أشعارهم[2]، وكان الميسر عندهم من شعار أهل الجود والكرم، وكان عدم المشاركة فيه عارا.

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، لمحمد أبي شهبة (١/٦٠ – ٦١)، والقول المبين في سيرة سيد المرسلين، لمحمد النجار، ص (٦١ – ٦٢).

(٢) جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (١/٣٢٦).

وبالجملة فلا شيء أصدق وأبلغ في وصف الحالة الاجتماعية والخلقية التي كان يعيشها أهل الجزيرة بصفة عامة وأهل مكة بصفة خاصة، من قول جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أمام النجاشيّ: «أيها الملك! كنّا قومًا أهلَ جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكلُ القويُّ منَّا الضعيف»[1].

رابعاً: محاسن العرب:

مع المساوئ السابقة كانت في العرب خصال من الخير كثيرة أهّلتهم لحمل راية الإسلام؛ فالعربي يتصف بالأَنَفة والإباء، والشهامة والذكاء، ويتسم بالصدق والأمانة، ويأنف من الكذب والغدر والخيانة، وهو رجل جادّ، صارم، يتحلى بالشجاعة والصراحة، بعيد عن المداهنة والمصانعة، وفيّ بالعهد، حاذق في الفراسة، ماهر في الفروسية، يبذل النفس والنفيس في حماية الجار والمستجير والمستغيث، وهو كريم يؤدّي حق الضّيافة والصّداقة مهما كلفه ذلك، حتى كان الرجل يأتيه الضيف، وليس عنده من المال إلا ناقته التي يعيش عليها، فيقوم إليها، ويذبحها لضيفه، حتى أصبحت سيرة بعضهم مضرب الأمثال في الكرم.

وكان العرب مغاوير حرب، وأحلاس خيل، وأصحاب جلادة وتقشّف في الحياة، بمعزل عن أدواء المدنية والترف، التي يصعب علاجها، والتي تحول دون التحمس للعقيدة والتّفاني في سبيلها[2].

---

(١) رواه ابن خُزَيمة في صحيحه، كتاب الزكاة، باب: ذكر البيان أن فرض الزكاة كان قبل الهجرة إلى أرض الحبشة (٢/١٠٧٩)، ورواه أحمد في مسنده (٣/٢٦٦) رقم الحديث (١٧٤٠)، وقال محققوا المسند: «حديث حسن».

(٢) انظر: السيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي، ص (٤٥ – ٤٨)، والسيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، لمحمد أبي شهبة (١/٩٤ –٩٧)، وتاريخ العرب القديم، لتوفيق بيومي، ص (٢٦١ – ٢٦٣).

كانت هذه الفضائل والأخلاق الحميدة رصيدا مدخرا في نفوس العرب حتى جاء الإسلام فنمّاها وقوّاها، ووجهها وجهة الحق والخير، فلا عجب إذا كانوا انطلقوا من شبه جزيرتهم، ففتحوا الأرض، وملؤوها إيمانا بعد أن مُلئت كفرا، وعدلا بعد أن ملئت جورا وظلما، وفضائل بعد أن عمتها الرذائل، وخيرا بعد أن طفحت شرا[1].

* * *

شرف مكة، ومنزلتها عند العرب

كانت مكة أرضا جرداء، لا شجر فيها ولا زرع ولا ماء، خالية من كل أثر للحياة، فأمر الله إبراهيم عليه السلام أن يأتي بهاجر عليها السلام، أم إسماعيل، وبابنها إسماعيل عليه السلام وهو طفل رضيع، من الشام حتى يتركهما في مكة، في مكان ليس فيه داع ولا مجيب، فلما وضعهما دعا ربه، فقال: ﴿ **رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ** ﴾ (إبراهيم: ٣٧)، فاستجاب الله دعاءه، فمرت بهم رفقة من جرهم، فاستقرت إلى جوار زمزم بإذن من أم إسماعيل، ورزق الله ذريته أنواع الثمرات التي يحملها الناس إليهم من كل حدب وصوب، فلما استقر بها إسماعيل رفع قواعد البيت مع أبيه إبراهيم عليهما السلام فاختار الله تعالى، مكة لتكون محل بيته العتيق، أوّل بيت وضع للنّاس لعبادتهم ونسكهم، يطوفون به، ويصلّون إليه، ويعتكفون عنده، وجعلها حرما آمنا يوم خلق السموات والأرض، فعاش أهلها في ظل بيت الله آمنين في وقت كان الناس يتخطفون من حولهم، وقد امتنّ الله عليهم

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، لمحمد أبي شهبة (١/٩٧).

بذلك في تنزيله، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (العنكبوت: ٦٧)، وهذا الأمان شمل الطير في الجو، والصيد في البر، والنبات فوق الأرض؛ قال النبي ﷺ في خطبته يوم فتح مكة: (إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعْضَدُ شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يُلْتَقط لقطته إلا مَن عَرَّفَهَا، وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَه)[1].

فأصبحت مكة بذلك محل تعظيم العرب جميعًا، فكان أحدهم يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيها فلا يتعرّض له حتى يخرج من البلد الحرام؛ وذلك لأنه قد وقر في نفوسهم أن «مكة لا تُقِرّ فيها ظلما ولا بغيا، ولا يبغي فيها أحد إلا أخرجته، ولا يريدها ملك يستحلّ حرمتها إلا هلك مكانه، فيقال: إنها ما سميت ببكة إلا أنها كانت تَبُكّ[2] أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئا»[3]، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الْحَجِّ: ٢٥)، وخير دليل على ذلك حادثة الفيل التي قاد فيها أبرهة الأشرم، نائب النجاشي على اليمن، بفيله العظيم، جيشه العرمرم

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية والموادعة، باب: إثم الغادر للبر والفاجر، رقم الحديث (٣١٨٩)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب: تحريم مكة وصيدها وخلاها، رقم الحديث (١٣٥٣).

(٢) أي: تَدُقّ، وتَكسِر. انظر: الروض الأنف، لأبي القاسم السهيلي (١٥/٢)، وسبل الهدى والرشاد، للصالحي (١٩٤/١).

(٣) سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (١٠٥/١).

لهدم الكعبة المشرفة، فأبادهم الله، ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ (الفيل: ٣ – ٥)، فزادت بذلك مكانة مكة في نفوس العرب؛ إذ ثبت لهم بما ليس فيه ريب حفظ الله لبيته، وإهلاكه من أراده بسوء.

وبقي أمر البيت الحرام بعد إسماعيل عليه السلام في يد جرهم، ولما استحلت جرهم حرمة البيت، وظلموا فيه سلط الله عليهم خزاعة، فقاتلوهم حتى أخرجوهم من مكة، وتولت خزاعة ولاية البيت زمنا طويلا، وكان سيدهم عمرو بن لحي أول من أدخل عبادة الأصنام إلى العرب، وغيّر دين إبراهيم عليه السلام قال عنه النبي ﷺ: (إن أول من سَيَّبَ السَّوَائِب، وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر، وإني رأيته يَجُرُّ أمعاءه في النار)[1]، ثم جاء قصي بن كلاب، فجمع قريشا في مكة، بعد أن تمكن من إجلاء خزاعة عنها، وأمر قريشا ببناء دورها حول الكعبة، وابتدأ هو فبنى دار الندوة، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة، يجتمع فيها كبراء أهل مكة تحت إمرته ليتشاوروا في أمور العباد والبلاد، فلا يعقدون لواء حرب إلا فيها، وفيها تجري عقود الزواج والمعاملات، فلا تنكح امرأة، ولا يتزوّج رجل إلا في هذه الدار، وبذلك عادت لقريش السيادة على مكة حتى ظهور الإسلام.

ثم قام قصي بتنظيم مكة، وتولّى الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة، وانقسمت المناصب بعد موته، فكان في بني هاشم السّقاية، وفي بني أمية العُقاب راية قريش، وفي بني نوفل الرفادة، وكان في بني عبد الدار اللواء والسّدانة مع الحجابة،

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٩٢/٧)، رقم الحديث (٤٢٥٨)، وأصله في الصحيحين من رواية عائشة: رواه البخاري في صحيحه، كتاب العمل في الصلاة، باب: إذا انفلتت الدابة في الصلاة، رقم الحديث (١٢١٢)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب: صلاة الكسوف، رقم الحديث (٩٠١).

وكان في بني أسد المشورة[1].

***

الدروس المستفادة

- يجب على المسلم أن يعتني بالسيرة النبوية، وأن يعلمها أهل بيته ومَن هم تحت ولايته؛ يقول زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما: «كنا نُعَلَّم مغازي النبي الله ﷺ وسراياه كما نُعَلَّم السورة من القرآن»[2].

- المسلم مأمور باتباع النبي ﷺ والتأسي به في أموره كلها؛ ولا يمكن ذلك إلا بدراسة سيرته ﷺ، ومعرفة أحواله في ليله ونهاره، وفي عباداته ومعاملاته، وفي فعله وتركه، وفي سِلمه وحربه.

- أن الإنسان كلما كان متمسكا بتعاليم الأنبياء عاش حياة سعيدة، بعيدة عن الفتن والاضطرابات، وكلما انحرف عنها ساد الشرك والظلم والجور، وفقد الأمن، وفسدت الأخلاق، وانحلت القيم، وكثرت الجرائم والموبقات.

- خطر التقليد الأعمى للآباء والأجداد في العادات والتقاليد، دون تمحيصها ومعرفة صحيحها من سقيمها، وأنه يؤدي إلى الضلال والخسران في الدنيا والآخرة، ويوقع الإنسان في الخرافات والوثنية.

- عظم شأن مكة، فهي حرم الله، وساحة بيته، ومحل الأمن والسكينة، وموضع الإعزاز والتبجيل من خلق الله.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (١/١١٥ – ١١٦)، والبداية والنهاية، لابن كثير (٣/٢٣٦ – ٢٣٩)، والسيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي، ص (٧٠) وما بعدها.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي (٢/١٩٥).

أخي الطالب/أختي الطالبة:

للتوسع في موضوعات هذه الوحدة ينظر إلى:

١ – السيرة النبوية لابن هشام

٢ – البداية والنهاية لابن كثير.

٣ – السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة. لمحمد محمد أبي شهبة.

***

الوحدة الثانية

مولد النبي المصطفى ﷺ وما سبقه من مبشرات

أخي الطالب/ أختي الطالبة:

يتوقع – بعد دراستك لهذه الوحدة – أن تكون قادرا على:

١ – معرفة أبرز المبشرات بولادة المصطفى ﷺ.

٢ – الاطلاع على ما نماذج من النصوص الواردة في الكتب القديمة من الديانات المحرفة والمتضمنة الإخبار بالرسول ﷺ، والبشارة به.

٣ – معرفة نسبه ﷺ، ومراحل حياته الأولى.

إرهاصات[1] النبوة

أولاً: بشارات الأنبياء والكتب السماوية بمحمد، ﷺ:

أيد الله – تبارك وتعالى – رسوله ﷺ بدلائل وآيات كثيرة دلت على صدق رسالته ووجوب الإيمان به، منها ما كان قبل مولده ﷺ؛ كبشارات الأنبياء السابقين به، ومنها ما اقترن بولادته؛ كحادثة الفيل، وفيما يأتي بيان شيء من ذلك:

أ – بشارات الأنبياء بنبوة محمَّد ﷺ، واشتمال كتبهم على ذكره:

أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أن ذِكْر نبيه محمد ﷺ موجود في كُتُب الأولين، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، وحكى بشارة عيسى عليه السلام لقومه ببعثته ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ (الصف: ٦).

وبالرغم من التحريف المتواصل على مدى التاريخ فيهما، فقد بقي من هذه البشارات الشيء الكثير، ومن ذلك ما ورد من التصريح برسالة محمد ﷺ في إنجيل برنابا؛ كما في الإصحاح الحادي والأربعين عن إخراج آدم وحواء من الجنة حيث ورد فيه: «فاحتجب اللَّه، وطردهما الملك ميخائيل من الفردوس، فلما التفت آدم رأى مكتوباً فوق الباب: «لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه». وجاء في موضع آخر منه هذه العبارة: «أجاب التلاميذ: يا معلم، مَن عَسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه

(١) «الإرهاص»: الإثبات، ومقدمة الشيء التي تؤذن بوجوده. انظر: لسان العرب لابن منظور، مادة: «رهص».

الذي سيأتي إلى العالم؟ أجاب يسوع بابتهاج قلب: إنه محمد رسول اللَّه». وجاء في الإصحاح الثاني من إنجيل لوقا قوله: «الحمد لله في الأعالي، وعلى الأرض إسلام، وللناس أحمد»[1].

وقد نصَّت التوراة المتداولة (ط. رجارد واطس. بلندن) على ظهور النبي ﷺ من مكة ونصها: «جاء الرب من سيناء، وأشرق لنا من ساعير، واستعلن من جبل فاران، ومعه ألوف الأطهار، في يمينه سِنَة من نار»[2]. فمجيئه من سيناء: بَعْثُه موسى عليه السلام وإشراقه من ساعير: بَعْثُه المسيح عليه السلام منه، وجبال فاران هي جبال مكة، واستعلانه منها: بَعْثُهُ محمدًا ﷺ من مكة، «فشبَّه بعثة موسى بمجيء الفجر، وشبه بعثة عيسى بشروق الشمس، وشبَّه بعثة محمد ﷺ بالظهور والاستعلان في كبد السماء الذي هو أوضح من سابقيه، وبه يتم النور على الخلائق ويكتمل»[3]، وأما ألوف الأطهار فهم الصحابة رضي الله عنهم، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ (التوبة: ١٠٨)، وقوله: «بيده سنة من نار» أي: الشريعة الإسلامية؛ لأنها أحرقت الشرك والمشركين.

ب- إخبار أهل الكتاب بقرب مبعثه ﷺ:

لظهور شأن محمد ﷺ في كتب المتقدمين كان اليهود يعرفونه كما يعرفون

---

(١) انظر: الإنجيل والصليب، للأب عبد الأحد داود، ص (٣٤ – ٥٥)، وهل بشر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ؟، لمنقذ السقار، ص (١١٤).

(٢) انظر: مختصر إظهار الحق، لمحمد رحمة الله الكيرانوي، ص (٢٢٠)، والسيرة النبوية الصحيحة، لأكرم ضياء العمري (١/١١٨ – ١٢٠)، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، مجموعة مؤلفين، (١/٢٠٢ – ٢٠٣).

(٣) مختصر إظهار الحق، لمحمد رحمة الله الكيرانوي، ص٢٢١).

أبناءهم، وكانوا يدركون بالعلامات قرب مبعثه ويتوعدون به العرب من الأوس والخزرج، ويقولون: «إنه تقارب زمان نبي يُبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم»[1].

ومما صح في إخبارهم بقرب مبعثه ﷺ ما رواه سلمة بن سلامة بن وَقْش رضي الله عنه قال: كان لنا جار من يهود، فخرج علينا يوما من بيته قبل مبعث النبي ﷺ بيسير، فوقف على مجلس بني عبد الأشهل، قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث مَنْ فِيهِ سِنًّا، فذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار، فقالوا له: ويحك يا فلان! ترى هذا كائنا؟ إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يُجْزَوْنَ فيها بأعمالهم؟ قال: نعم، قالوا له: ويحك، وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن، قالوا: ومتى تراه؟ قال: فنظر إِلَيَّ، وأنا من أحدثهم سِنّا، فقال: إن يَسْتَنْفِدْ[2] هذا الغلام عمره يدركه، قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله تعالى رسوله ﷺ، وهو حَيٌّ بين أظهرنا، فآمنا به، وكفر به بغيا وحسدا[3].

وقد أخبر سلمان الفارسي رضي الله عنه في قصة إسلامه المشهورة، أنَّ راهب النصارى في عمّورية عندما حضرته الوفاة طلب منه سلمان أن يوصيه، فقال الراهب: «أي بُنَيَّ، قد أظلك زمان نبي، هو مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجرا إلى أرض بين حَرَّتَيْنِ بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة،

(١) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٥٤١/١)، والسيرة النبوية الصحيحة، لأكرم ضياء العمري (١٢٢/١).

(٢) أي: يستكمل.

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٦٤/٢٥)، رقم الحديث (١٥٨٤١)، وقال المحققون: «إسناده حسن».

بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل»[1].

ثانياً: من الأحداث العظام التي سبقت ميلاد المصطفى ﷺ:

حادثة الفيل:

لما احتلت الأحباش اليمن، واستولى أبرهة الأشرم – عامل النّجاشيّ – على الحُكم فيها، غار من الكعبة أن تكون مثابة للناس، يشدّون إليها الرحال، فبنى في صنعاء كنسية عظيمة سمّاها «القُلَّيس»، وأراد أن يصرف إليها حج العرب بدل الكعبة، فسمع بذلك رجل من بني كنانة، فدخلها ليلا، وأحدث فيها. ولما علم أبرهة بذلك استشاط غضبا، وعزم على هدم الكعبة، فسار في جيش عظيم، ومعه الفيلة التي استقدمها من الحبشة، ولما شارف أبرهة مكّة قام عبد المطلب، ومعه نفر من قريش، فأخذوا بحلقة باب الكعبة، يدعون الله، ويستنصرونه على أبرهة وجنده.

فلما أصبح أبرهة اتجه نحو البيت الحرام، فلما كان بوادي محسِّر برك فيلهم العظيم، فضربوه ليقوم فأبى، فكانوا كلّما وجّهوه إلى مكة بَرَك، وإذا وجّهوه إلى سائر الجهات قام يهرول، وبينما هم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيرا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، لا تصيب منهم أحدا إلا هلك، فهزم الله أبرهة، وأهلك جنده، ومات أبرهة في طريق عودته إلى اليمن[2].

و في ذلك العام ولد ﷺ على أشهر الأقوال.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٤٤/٣٩) رقم الحديث (٢٣٧٣٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٥٥/٢).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٥٢/١) وما بعدها، والبداية والنهاية، لابن كثير (١٤٠/٣).

نسب الرسول ﷺ وولادته ورضاعته

أولاً: نسبه الشريف ﷺ:

هُوَ أَبُو الْقَاسِم مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد الْمطلب (واسمه شيبة) بن هَاشم بن عبد مَنَاف بن قُصَيٍّ بن كلاب بن مُرَّةَ بن كَعْب بن لؤَي بن غَالب بن فِهْر (وهو الملقب بقريش، وإليه تنتسب القبيلة) بن مَالك بن النَّضر بن كِنَانَة بن خُزَيْمَة بن مُدْرِكَةَ بن إلْيَاس بن مُضر بن نِزار بن مَعد بن عدنان[1].

وأما أمه فهي آمنة بنت وهب بن عبد مَناف بن زُهْرَةَ بن كِلاب بن مُرَّةَ[2]. فيلتقي نسبه ﷺ من جهة أبيه ومن جهة أمه في كِلاب بن مُرَّةَ، وهو الجدّ الخامس من جهة أبيه، والرابع من جهة أمه، ﷺ.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أنه من «أشرف ولد آدم حَسَبًا، وأفضلهم نسبا»[3]، فعن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)[4].

ولم يزل ﷺ في سلسلة هذا النسب الشريف يتنقل من أصلاب الآباء الطيبين، إلى أرحام الأمهات الطاهرات، لم يمسّ نَسَبَه من سفاح الجاهلية شيء، فهو سلالة آباء

---

(١) ذكر البخاري نسب الرسول ﷺ بهذا الترتيب في صحيحه، في كتاب مناقب الأنصار، عقب باب: مبعث النبي ﷺ، (٥/٤٤)، وانظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (١/٣ – ٥).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (١/١١٠).

(٣) المرجع السابق، (١/١١٠).

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ، رقم الحديث (٢٢٧٦).

كرام؛ فعن علي ﷺ أن النبي ﷺ قال: (خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، لم يُصْبني من سفاح الجاهلية شيء)[1].

ثانياً: ولادته ﷺ:

اتَّفقُوا كتاب السيرة على أن رسول الله ﷺ ولد يوم الاثنين في شهر ربيع الأول[2]، وأما تاريخ يوم ولادته فالمشهور أنه ولد في الثاني عشر من ربيع الأول[3]، وحقّق محمود باشا الفلكي حسابيا أن مولده ﷺ كان صبيحة يوم الاثنين، تاسع ربيع الأوّل، الموافق لليوم العشرين من أبريل سنة ٥٧١ من الميلاد[4]. وأما عام ولادته فالأكثرون أنه عام الفيل[5]، وهو الصحيح؛ لما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: «وُلِدَ النبي ﷺ عام الفيل»[6].

ولما وضعته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب أنه قد ولد لك غلام، فأتاه ونظر إليه، فسماه محمدًا، ولم يكن هذا الاسم شائعا عند العرب، فتعجبوا منه.

روى البيهقي عن أبي الحكم التنوخي رحمه الله أنه لما كان يوم السابع من ولادة رسول الله ﷺ ذبح عنه جدّه، ودعا له قريشاً، فلما أكلوا قالوا: يا عبد المطلب، ما

---

(١) رواه الآجري في كتاب الشريعة، كتاب الإيمان والتصديق، باب: ذكر قول الله عز وجل: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٩)، رقم الحديث (١٤١٧/٣)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير، (٦١٣/١).

(٢) انظر: تلقيح فهوم أهل الأثر، لابن الجوزي، ص (١٤٠).

(٣) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير (٣٧٥/٣)، وأشرف الوسائل، لابن حجر الهيتمي، ص (٣٨).

(٤) انظر: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، لمحمد بن عفيف الخضري، ص (٩).

(٥) أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل، لابن حجر الهيتمي، ص (٣٨).

(٦) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين، باب: ذكر أخبار سيد المرسلين وخاتم النبيين، (٤١٨٠)، وصححه الألباني في السلسة الصحيحة، (٤٣٣/٧).

سميته؟ قال: سميته محمدا. قالوا: فلم رَغِبت به عن أسماء أهل بيته؟ قال: أردت أن يحمده الله تعالى، في السماء، وخَلْقُه في الأرض[1].

ثالثاً: رضاعه ﷺ:

أول من أرضع رسول الله ﷺ من المراضع – بعد أمه – ثُويَبة مولاة أبي لهب بلبن ابن لها يقال له: مسروح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وأرضعت بعده أبا سلمة ابن عبد الأسد المخزومي[2]. وأعتقها أبو لهب حين بشرته بولادته عليه السلام فجوزي بذلك[3].

ثمّ التمس عبد المطّلب لحفيده الذي كان أحبّ أولاده إليه، مُرْضَعا من البادية، على عادة العرب، فجاءت نسوة من بني سعد بن بكر يطلبن أطفالا يرضعنهم، ومن بينهم حليمة السعديّة، فلما أخذته رأت من بركته ﷺ ما قصّت منه العجب، تقول حليمة: «في سنة شَهْباء[4]، لم تُبْق لنا شيئا خرجتُ على أتان لي قَمراء[5]، معنا شارف[6] لنا، والله ما تَبِضّ[7] بقطرة، وما ننام ليلَنا أجمعَ من صبيِّنا الذي معنا، من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يُغْنيه، وما في شارفنا ما يغذيه، حتى قَدِمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منَّا امرأة إلا وقد عُرض عليها رسولُ الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها: إنه

(١) دلائل النبوة، للبيهقي (١/١١٣)، ونقله عنه الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/٣٨٩).

(٢) انظر: تلقيح فهوم أهل الأثر، لابن الجوزي، ص (١٨)، وسبل الهدى والرشاد، للصالحي (١/٣٧٥).

(٣) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير (٣/٤٠٧).

(٤) سنة شهباء: ذات جدب وقحط. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مادة «شهبه».

(٥) القمراء: شديدة البياض أو بياض إلى الخضرة. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مادة «قمر».

(٦) الشارف: الناقة المسنة. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مادة «شرف».

(٧) تبض: لا تقطر، ولا تسيل بقطرة لبن. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مادة «بضّ».

يَتيم، وذلك أنا إنما كنّا نَرْجو المعروفَ من أبي الصبيّ، فكنَّا نقول، يتيم! وما عسى أن تَصْنع أمُّه وجدُّه؟! فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعا غيري، فلمَّا أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجعَ من بين صَواحبي، ولم آخذ رضيعا، والله لأذهبنّ إلى ذلك اليَتيم فلآخذنّه؛ قال: لا عليك أن تَفْعلي، عسى الله أن يجعلَ لنا فيه بركة. قالت: فذهبتُ إليه فأخذته، قالت: فلما وضعته في حِجْري أقبل عليه ثَدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنَّا ننام معه قبلَ ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل، فحَلب منها ما شَرب، وشربتُ معه حتى انتهينا رِيًّا وشِبعًا، فَبِتْنَا بخير ليلة. قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي – والله، يا حليمة – لقد أخذتِ نَسمةً مباركةً؛ قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا، وركبت أتاني، وحملتُه عليها معي، فوالله لقطعتْ بالرَّكب، ما يقدر عليها شيءٌ من حُمُرهم، حتى إن صَواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبى ذُؤَيب، ويحك اربعي[1] علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى، والله، إنها لهي هي؛ فقلت: والله إن لها لشأنا.[2].

رابعاً: حادثة شق الصدر ﷺ:

وقعت حادثة شق الصدر للرسول ﷺ في بادية بني سعد عندما كان طفلًا في الرابعة من عمره[3]؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو

(١) أي: أرفقي وانتظري. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مادة «ربع».

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي (١/٤٥).

(٣) وقوع شق الصدر في السنة الرابعة هو الذي اختاره أكثر أصحاب السِّيَر؛ كالذهبي في تاريخ الإسلام=

يلعب مع الغلمان، فأخذه فصَرَعه، فشقّ عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه عَلَقَةً، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طَسْتٍ من ذهب بماء زمزم، ثم لَأَمَهُ[1]، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يَسْعَوْنَ إلى أمه – يعني ظِئْرَهُ – فقالوا: إن محمدا قد قُتِل، فاستقبلوه، وهو مُنْتَقِعُ اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك الْمِخْيَطِ في صدره[2].

ولا شك في أنّ التطهير من حظ الشيطان هو إرهاص مبكر للنبوّة، وإعداد للعصمة من الشر وعبادة غير الله، فلا يحل في قلبه شيء إلّا التوحيد، وقد دلّت أحداث صباه على تحقق ذلك، فلم يرتكب إثما، ولم يسجد لصنمٍ رغم شيوع ذلك في قومه[3].

***

الدروس المستفادة

- هيأ الله النفوس لاستقبال بعثة الرسول ﷺ بالآيات العظيمة والبشارات التي تدل على قدومه، حتى يتطلع الناس إلى ظهوره، ولأنَّ الأمر المتوقع إذا وقع سهلا تقبله، وإذا جاء الشيء على غير توقع استنكرته النفوس.
- أن الإيمان بالأنبياء السابقين يستلزم الإيمان بنبوة خاتم النبيين ﷺ؛ لأنَّ نبوته

=(١/٤٥)، وابن كثير في الفصول في السيرة، ص (٩٢)، والحافظ زين الدين العراقي في ألفية السيرة النبوية، ص (٣٦)، وغيرهم.

(١) لَأَمَهُ: جَمَعه وضمّ بعضه إلى بعض. انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي (٢/٢١٦).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ، رقم الحديث (٢٦١).

(٣) السيرة النبوية الصحيحة، لأكرم ضياء العمري (١/١٠٤).

مقررة في التوراة والإنجيل.

- عُلوّ شأن الرسول ﷺ وعِظَم قدره، وفضله على الأنبياء كلهم، فقد بشّر الله به في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، وأخذ الميثاق عليهم لئن بُعث محمد، وهم أحياء، لَيؤمِنُنَّ به ولينصرُنَّه.

- أن الفُرَقة والتنازع سبب للفشل والجبن والضعف، وتسلُّط الأعداء. فتفرُق العرب وتشتُّهم وعداواتهم القبلية كانت سببا في ضعفهم أمام أبرهة وجنوده، واستسلامهم.

- عناية العرب باللغة العربية في الجاهلية؛ فقد كانوا يسترضعون أطفالهم في البادية؛ حتى ينشؤوا على اللغة السليمة واللسان الفصيح.

***

أخي الطالب/أختي الطالبة:

للتوسع في موضوعات هذه الوحدة ينظر إلى:

١ – دلائل النبوة للبيهقي.

٢ – السيرة النبوية لابن هشام.

٣ – السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري.

***

الوحدة الثالثة

حياته ﷺ من الطفولة إلى البعثة

أخي الطالب/ أختي الطالبة:

يتوقع – بعد دراستك لهذه الوحدة – أن تكون قادرا على:

١ – استشعار حكمة نشأته ﷺ يتيما.

٢ – الإلمام بالأعمال التي كان يعملها ﷺ قبل البعثة، ومشاركاته في الأمور العامة.

٣ – بيان حِفْظ الله سبحانه وتعالى لنبيه من دَنَس الجاهلية.

نشأته ﷺ يتيما

مات عبد الله بن عبد المطلب والد النبي ﷺ في شبابه، وذلك حين خرج من مكة قاصدا الشام في تجارة، فلما قفل من الشام نزل بالمدينة، وهو مريض، وبها أخواله من بني النجار، فأقام بها حتى توفي، ودُفن فيها، فمات والرسول ﷺ «حَمْل في بطن أمه على المشهور»[1]، قال ابن كثير: وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه[2].

وبعد وفاة والده عاش رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب، وجده عبدالمطلب بن هاشم في كلاءة اللَّه وحفظه، ينبته الله نباتا حسنا، فلما بلغ رسول الله ﷺ ستّ سنين، قدمت به أمه على أخواله من بني عديّ بن النجار بمدينة يثرب، تُزيره إياهم، وفي عودتها إلى مكّة أدركها الموت بمكان بين مكة والمدينة، اسمه الأبواء[3]، فذاق ﷺ في صغره مرارة الحرمان من عطف الأبوين.

وبعد وفاة أمه ﷺ عادت أمّ أيمن به إلى مكة، وسلَّمته إلى جدّه عبد المطلب، فكفله جده، وكان به حفيا، يقربه منه ويدنيه، ويجلسه على فراشه في ظلّ الكعبة، ويلاطفه، لكن كفالته له لم تَدُم طويلا فما إن بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنين، حتى مات جده عبد المطلب، فذاق مرارة اليتم مرة ثانية؛ وكانت هذه المرة أشدّ من الأولى؛ فإنّه ﷺ لم ير أباه، ولم يَنْعَم بعطفه وحنوّه، فكان الشّعور بفقده شعورا عقليّا

(١) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير (٣/٣٨٢). وصحح الإمام الذهبي هذا القول. انظر: تاريخ الإسلام (١/٥٠).

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير (٣/٣٨٣).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (١/١٦٨)، وزاد المعاد، لابن القيم (١/٧٥).

تقليديا، كان الشعور بفقد عبد المطّلب شعورا حسيا تجريبيا[1].

وبعد وفاة عبد المطلب كفله عمه أبو طالب بن عبد المطلب شقيق والده، وكان شديد العطف عليه، يحيطه بكل صنوف الرعاية، مع قِلّة ماله وكثرة عياله، وكان يفضله على عياله في كل شيء، وظلّ طيلة حياته يعز جانبه، ويبسط عليه حمايته، ويناضل الخصوم من أجله، حتى دافع عنه بعد مبعثه بيده ولسانه، مع أنه كان مستمراً على شركه إلى أن مات.

وهكذا شاء الله تعالى، «أن يجعل نبيه محمدا ﷺ يتيما، حتى لا تتدخل يد بشرية في تربيته وتوجيهه، كما قال الله تعالى لموسى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ (طه: ٤١)، ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ (طه: ٣٩)، فيكون الله تعالى، هو الذي يتولى تربيته، ولا يتلقَّى، أو يتلقَّن من مفاهيم الجاهلية وأعرافها شيئا، إنما يتلقى من لدن الحكيم الخبير»[2].

***

عمله ﷺ بالرعي والتجارة

أولاً: عمله ﷺ بالرعي.

رعى النبي ﷺ الغنم في طفولته في بادية بني سعد مع إخوته من الرضاعة، ولما اشتد ساعده، وهو في كنف عمه أبي طالب، ورأى قِلَّة ماله، وكثرة أولاده، رغب في مساعدته، فعمل في رعي الأغنام لأهل مكة مقابل قراريط، ورعاها لأهله أيضا، وقد ذكر ذلك عن نفسه، وعن الأنبياء قبله، فقال ﷺ: (ما بعث الله نبيا إلا رعى

(١) السيرة النبوية، لأبي الحسن الحسني الندوي، ص (١٠٤).

(٢) فقه السيرة النبوية، لمنير الغضبان، ص (٨٤).

الغنم)، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: (نعم، كنت أرعاها على قَرَارِيطَ لأهل مكة)[1]. والقيراط: جزء يسير من الدينار أو الدرهم، وهو أجرٌ زهيد، فكان ﷺ يقنع بالقليل الذي يعود عليه من كسبها.

والحكمة من اشتغال الأنبياء برعي الغنم خاصة أنهم إذا خالطوا الغنم زاد لهم الحلم والشفقة؛ فإنهم إذا صبروا على مشقة رعيها، ودفعوا عنها السبع الضارية واليد الخاطفة، وعَلِموا اختلاف طباعها، وصبروا على جمعها مع تفرقها في المرعى والمشرب، وعرفوا ضعفها واحتياجها إلى النقل من مرعى إلى مرعى، ومن مسرح إلى مسرح – عرفوا مخالطة الناس مع اختلاف أصنافهم وطباعهم، وقِلَّة عقول بعضهم ورزانتها، فصبروا على لحوق المشقة من الأمة إليهم، فلا تنفر طباعهم، ولا تملّ نفوسهم بدعوتهم إلى الدين؛ لاعتيادهم الضرر والمشقة»[2].

ثانياً: عمله ﷺ بالتجارة:

اشتغل رسول الله ﷺ بالتجارة في شبابه، فأقام شراكة مالية بينه وبين رجل من قومه اسمه: السائب بن أبي السائب، وظهرت فيه أمانته ﷺ وسماحته وحسن تعامله، وشهد له بذلك شريكه السائب حين قدم على النبي ﷺ يوم الفتح، فقال: «كنتَ شريكي في الجاهلية، فكنتَ خيرَ شريك، كنتَ لا تُدَارِينِي، وَلَا تُمَارِينِي[3]»[4].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب: رعي الغنم، رقم الحديث (٢٢٦٢).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للملا علي القاري (١٩٩١/٥).

(٣) لا تُدَارِينِي: من درأ: إذا دفع، ولا تماريني من المراء، وهو الجدال، والمراد أنه كان شريكا موافقا، لا يخالف ولا ينازع. انظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه، لمحمد بن عبد الهادي السندي (٤٣/٢).

(٤) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب: الشركة والمضاربة، رقم الحديث (٢٢٨٧) وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجة (٢٨٧/٥).

وقد شارك ﷺ في أكثر من رحلة تجارية خارج مكة، منها خروجه مع عمه إلى الشام في تجارة وهو ابن ثنتي عشرة سنة، وخروجه إلى الشام في تجارة لخديجة بنت خويلد رضي الله عنها مع غلامها ميسرة على سبيل المضاربة، وفي هذه الرحلة رأى ميسرة ما بهره من شأنه ﷺ [1]، وملأ قلبه إعجابا وتقديرا. فلما قَدِم رسول الله ﷺ بتجارتها كان قد ربح ضعف ما كانت تربح[2].

وكان ميسرة قد قصّ على سيدته ما رأى من شأنه ﷺ، فازدادت خديجة رضي الله عنها إعجابا به، ووجدت فيه ضالتها المنشودة، ورغبت في الزواج منه، وكانت يومئذ أرملة، بنت أربعين سنة على المشهور، وقيل غير ذلك، لكنها كانت أفضل نساء قومها نسباً وثروة وعقلاً، فوافق النبي ﷺ على طلبها، وبعث بأعمامه إلى وليها خاطبًا، وكان عمره إذ ذاك خمسا وعشرين سنة، فكانت أول امرأة تزوجها ﷺ، وكل أولاده منها سوى إبراهيم، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت رضي الله عنها.

وكانت رضي الله عنها نعم الزوجة تشاركه في السراء والضراء، وفي الشدة والرخاء، وتواسيه بنفسها ومالها، وتعيش همومه، وتخفّف عنه ما يصيبه، وعاشت معه رضي الله عنها وأرضاها خمساً وعشرين سنة، فحفظ لها رسول الله ﷺ وُدّها، ولم يحب أحدا مثل حبه لها.

***

(١) انظر: الفصول في السيرة، لابن كثير، ص (٩٣ – ٩٤).

(٢) انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد (١/١٣١)، وعيون الأثر، لابن سيد الناس (١/٦٣).

مشاركته ﷺ في الأمور العامة

أولاً: مشاركته ﷺ في حرب الفِجَار بوقاية أعمامه:

سُمّيت هذه الحرب بحرب الفِجَار بسبب ما استحل فيها من حرمة الأشهر الحرم؛ كأن الناس فجروا فيها جميعا.[1]، وكانت هذه الحرب بين قريش وكنانة وبين قيس عَيلان، وعمر الرسول ﷺ خمسة عشر عاما على المشهور.، وقد اشترك ﷺ في هذه الحرب دفاعا عن أعمامه؛ حيث روي عنه ﷺ أنه قال: (كنت أنبل على أعمامي)، أي: أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها[2]، ومعنى ذلك أنه لم يَقدُم على القتال، بل كان درعا واقية لأعمامه، ولم يثبت خلافه بسند صحيح[3].

ثانياً: مشاركته ﷺ في حِلف الفضول:

حِلفُ الفضول هو عهد وميثاق يدعو إلى الدفاع عن الحقوق وحماية المستضعفين ونصرة المظلومين، وكان سببه أنّ رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل أحد أشراف قريش، فحبس عنه ثمنها، فاستغاث الزبيديّ بأشراف قريش، فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل لمكانته، وانتهروه، فرقى الزبيدي على جبل أبي قُبَيْس عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة، فصاح بأعلى صوته:

يَـا آلَ فِهْـرٍ لِمَظْلُـومٍ بِـضَاعَتُه ❖ بِـبَطْنِ مَكّـةَ نَـائِي الـدَّارِ وَالنَّفَـرِ
ومُحْرِمٍ أشْعَث لَـمْ يَقْـضِ عُمْرَتَـهُ ❖ يَـا لَلرِّجَـالِ وَبَـينَ الحِجْـرِ وَالْحَجَـرِ
إِنَّ الحَـرَامَ لِمَـنْ تَمَّـتْ كَرَامَتُـهُ ❖ وَلا حَـرَامَ لِثَـوْبِ الفَـاجِرِ الغُـدَر

(١) انظر: الروض الأنف، للسهيلي (٢/١٤٦ – ١٤٧).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (١/١٨٦).

(٣) انظر: الروض الأنف، للسهيلي (٢/١٤٧).

فاستنهض هذا الشعر أهلَ مكة وسادتها، فنهض الزُّبَيْرُ بن عبد المطلب داعيًا إلى نجدة الزُّبيديِّ، فاجتمع رجال من ذوي المروءة والفتوّة في دار عبد الله بن جدعان فتعاقدوا، وتعاهدوا بالله لَيَكوننّ يدا واحدة مع المظلوم على الظالم، حتى يُؤَدّيَ إليه حقّه، ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيديّ، فدفعوها إليه، فسمّت قريش ذلك الحِلف «حِلفُ الفضول» وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر[1]، أي: قاموا بعمل فاضل.

وقد حضر النبي ﷺ هذا الحِلف الذي رفعوا به منار الحق، وهدموا به صرح الظلم، وهو يعد من مفاخر العرب وعرفانهم لحقوق الإنسان[2]، وكان ﷺ مغتبطا بهذا الحِلف، متمسّكا به حتّى أثنى عليه بعد البعثة، فقال: (لقد شهدت في دار عبدالله بن جُدْعَانَ حلفا ما أحبّ أن لي به حمر النَّعَمِ، ولو أُدْعَى به في الإسلام لأجبت)[3].

ثالثاً: مشاركته ﷺ في تجديد بناء الكعبة المشرفة والتحكيم بين المختلفين:

لما بلغت سنّه ﷺ خمسا وثلاثين سنة اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة لما أصابها من سيل جارف، صدّع جدرانها بعد توهينها من حريق كان أصابها، فأرادت قريش هدمها؛ ليعيدوا بناءها ويرفعوها ويسقفوها؛ لأنها كانت قصيرة البناء، فوق

(١) انظر: الروض الأنف، للسهيلي (٢/٤٥) وما بعدها، والبداية والنهاية، لابن كثير (٣/٤٥٥) وما بعدها.

(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، لمحمد أبي شهبة (١/٢١٤).

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب جماع أبواب تفريق ما أخذ من أربعة أخماس الفيء غير الموجف عليه، باب: إعطاء الفيء على الديوان ومن يقع به البداية، رقم الحديث (١٣٠٨٠)، وصححه ابن الملقن في البدر المنير (٧/٣٢٥).

القامة، ولم يكن لها سقف، فكانت عرضة لانتهاب السارقين ما تحتوي من نفائس، واتفقوا على أن لا يدخل في بنائها إلا الطيّب من أموالهم، ولا يدخل فيها مال من ربا أو مهر بغي أو مظلمة، فقصرُت بقريش النفقة الطيّبة، فأخرجوا من الجهة الشمالية نحوا من ستة أذرع، وهي التي تُسمّى بالحجر والحطيم، وجعلوا لها بابًا واحدًا، ورفعوه من الأرض؛ لئلا يدخلها إلا من أرادوا، وسقفوها على ستة أعمدة.

وقد شارك الرسول ﷺ في بناء الكعبة، فكان ينقل الحجارة على كتفه، وليس عليه ما يتقي به أذى الحجارة[1].

ولما بلغ البنيان موضع الركن، اختصموا في الحجر الأسود، كلّ قبيلة تريد أن يكون لها هذا الشرف، وكادت تنشب بينهم حرب طاحنة، لولا أنهم اتّفقوا على أن يحكّموا أوّل داخل عليهم من باب المسجد، فكان ﷺ هو أوّل داخل، فاستبشروا به، وقالوا: هذا محمّد، هذا الصّادق الأمين، رضينا به، فبسَط ﷺ رداءه، ووضع الحجر فيه، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعا، فرفعوه إلى موضعه، فتناوله ﷺ بيده المباركة، فوضعه في موضعه[2]. وبذلك انتهى النزاع والخصام، وحلّ الصفاء والوئام.

* * *

(١) خبر مشاركة النبي ﷺ في بناء الكعبة متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب: بنيان الكعبة، رقم الحديث (٣٨٢٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب: الاعتناء بحفظ العورة، رقم الحديث (٣٤٠).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (١/١٩٢) وما بعدها، وعيون الأثر، لابن سيد الناس (١/٦٦).

حفظ الله تعالى لنبيه ﷺ قبل البعثة

نشأ رسول الله ﷺ محفوظا من الله تعالى، معصوماً من كل ما يمسّ عقيدته بسوء، فلم يُعظِّم صنماً قط، وقد أقسم مولاه زيد بن حارثة مرة على أن رسول الله ﷺ ما مسّ صنما حتى أكرمه الله بالوحي[1]، ولم يكن يأكل مما يذبح على النصب، عاش بعيدا عن أقذار الجاهليّة وعاداتها، عصمه الله حتى من مجالس اللهو التي يقصدها الفتيان.

وعصمه الله تعالى، من عادة التكشف الجاهلية، فحينما كانت قريش تبني الكعبة في الجاهلية وقد رفعوا أُزُرَهم على عواتقهم يتّقون بها أذى الحجارة – كان ﷺ يحمل الحجارة من أَجْياد، ويضعها على عاتقه، وليس عليه شيء، ولم يرض برفع إزاره، حتى أمره عمه العباس بذلك، فذهب يضعه على عاتقه فبدت عورته من صغر الإزار، فسقط على الأرض مغشيا عليه، ونودي: يا محمد، خَمِّرْ عورتك، فلم تنكشف عورته بعد ذلك[2].

وكان عليه الصلاة والسلام مستمسكا بإرث أبويه إبراهيم وإسماعيل ^ في حَجّهم ومناكحهم وبيوعهم[3]، فكان يقف مع الناس بعرفات، ولا يصنع ما تصنع قريش من وقوفها بالمزدلفة، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: (كانت قريش ومن دان دينها

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة، لأكرم ضياء العمري (١/١١٧).

(٢) خبر هذه القصة متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب: بنيان الكعبة، رقم الحديث (٣٨٢٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب: الاعتناء بحفظ العورة، رقم الحديث (٣٤٠)، وتقدم.

(٣) انظر: دلائل النبوة، للبيهقي (٢/٣٧).

يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات، ثم يقف بها، ثم يفيض منها)[1].

وكان ﷺ أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقا، وأشدّهم حياء، وأكثرهم حلما، وأصدقهم حديثا، وأعظمهم أمانة، حتى ما عُرف في قومه إلّا بالأمين[2]. وكان ﷺ كما وصفته أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها بقولها: «إنك لتصلُ الرحم، وتصدق الحديث، وَتَحْمِلُ الكَلَّ[3]، وتكسب المعدوم، وتَقْرِي الضيف، وَتُعِينُ على نوائب الحق»[4].

والخلاصة أن حياة النبي ﷺ قبل البعثة كانت أمثل حياة وأكرمها، وأحفلها بمعاني الإنسانية والشرف، والكرامة، وعظمة النفس، ثم نبّأه الله وبعثه، فنَمَت هذه الفضائل وترعرعت، وما زالت تسمو فروعها، وترسخ أصولها، وتتسع أفياؤها حتى أضحت فريدة في هذه الدنيا[5].

***

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ (البقرة: ١٩٩)، رقم الحديث (٤٥٢٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب: في الوقوف وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ (البقرة: ١٩٩)، رقم الحديث (١٢١٩).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (١/١٨٣).

(٣) الكَلّ: هو **من لا ولد له ولا والد ومن يكون عبئا على غيره.** انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مادة «كل». والمعنى: إنك تقوم بشأن مَن لا يستقل بأمره، فتكفل اليتيم، وتعين الضعيف، وتحمل ثقل العجزة.

(٤) متفق عليه، رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: ما ودعك ربك وما قلى، رقم الحديث (٤٩٥٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: بدء الوحي، رقم الحديث (١٦٠).

(٥) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، لمحمد أبي شهبة (١/٢٣٩).

الدروس المستفادة

- المؤمن يعمل بجهده، ويكسب بيده، ولا ينتظر حسنات الناس؛ ولا يأنف من عمل مباح، فالأنبياء عليهم السلام اشتغلوا برعي الغنم، ولم يجلسوا متواكلين عالة على غيرهم.

- ينبغي للداعية أن يعتمد في معيشته على جهده، وأن يستعفّ عما في أيدي الناس، ولذلك أمر الله رسوله ﷺ بأن يقول لأمته: ﴿ **قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ (الأنعام: ٩٠).

- رعي الأغنام يورث التواضع، والمتواضع قريب من الله، وقريب من الناس، وأجدر بحمل الرسالة ومهمة الدعوة.

- الدين والخُلُق أساس اختيار أحد الزوجين لصاحبه، فقد تزوج ﷺ من أرملة تكبره في السن، لكنها اتصفت بالعفّة والشرف، وعُرفت بين قومها بالطاهرة، فكانت نعم الزوجة، حتى أصبحت خير نساء العالمين بخُلُقِها وحسن تعاملها.

- المسلم يكون فاعلا ومؤثرا في مجتمعه، يشاركهم في أمور الخير والفضائل، فقد شارك النبي ﷺ في بناء الكعبة، وشهد غير ذلك من مآثر قومه في الجاهلية.

- المسلم مطالب بالوقوف مع كل من أراد إقامة العدل ونُصرة الحق ودفع الظلم، بغض النظر عن جنسه ووطنه ودينه، فقد شارك النبي ﷺ في حِلف الفضول لنصرة المظلومين والمطالبة بحقوقهم في الجاهلية، وقد مدحه النبي ﷺ بعد الإسلام، وقال: (ولو أُدْعَى به في الإسلام لَأَجَبْتُ)[1].

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب جماع أبواب تفريق ما أخذ من أربعة أخماس الفيء غير الموجف=

- الإنسان بفطرته السليمة يدرك حرمة الربا، والأموال المأخوذة ظلما والمكاسب الخبيثة؛ كمَهْر الْبَغِيِّ، وثمن الخمر؛ ومن أجل ذلك امتنع العرب في الجاهلية من إدخالها في بناء البيت الحرام.

* * *

أخي الطالب/أختي الطالبة:

للتوسع في موضوعات هذه الوحدة ينظر إلى:

١ – عيون الأثر، لابن سيد الناس.

٢ – السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة. لمحمد محمد أبي شهبة.

٣ – السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري.

* * *

=عليه، باب: إعطاء الفيء على الديوان ومن يقع به البداية، رقم الحديث (١٣٠٨٠)، وصححه ابن الملقن في البدر المنير (٣٢٥/٧).

الوحدة الرابعة

بعثة النبي ﷺ وبدايات الدعوة

أخي الطالب/ أختي الطالبة:

يتوقع – بعد دراستك لهذه الوحدة – أن تكون قادرا على:

١ – معرفة الأحداث التي اكتنفت بعثته ﷺ

٢ – استخلاص فقه الدعوة إلى الله في أيام الشدائد.

نزول الوحي ومراحل الدعوة

أولاً: نزول الوحي:

مهد الله ﷻ قبل نزول الوحي إلى رسول الله ﷺ بالرؤية الصادقة، فكان لا يرى شيئاً في المنام إلا كان كما رأى، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «أول ما بُدِئَ بِهِ رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصبح»[1].

ولما بلغ ﷺ سنّ الكمال، وهي أربعون سنة، جاءه جبريل عليه السلام وهو في غار حِراء في يوم الاثنين من شهر رمضان المبارك[2] وتُحدِّث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن بَدْءِ نزول الوحي، فتقول: «جاءه المَلَك، وهو في غار حراء فقال: اقرأ، قال: (ما أنا بقارئ)، قال: (فأخذني، فَغَطَّنِي حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فَغَطَّنِي الثانية حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فَغَطَّنِي الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿ **ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ** ﴾) (العلق: ١ – ٣)، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة رضي الله عنها، فقال: (زَمِّلُونِي

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب: أول ما بدئ به رسول الله، رقم الحديث (٦٩٨٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: بدء الوحي، رقم الحديث (١٦٠).

(٢) تحديد البعثة بيوم الاثنين يدل عليه حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين؟ قال: (ذاك يوم وُلِدْتُ فيه، ويوم بُعِثْتُ أو أُنْزِلَ عَلَيَّ فيه). رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب: استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، رقم الحديث (٢٨٠٤). وأما كونها في شهر رمضان فهو المشهور؛ بناء على أنه الشهر الذي أنزل فيه القرآن، وهو الذي اختاره ابن إسحاق. انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (١/٢٣٥)، والبداية والنهاية، لابن كثير (٤/١٥).

زَمِّلُونِي)، فقال لخديجة ﵂ وأخبرها الخبر: (لقد خشيتُ على نفسي)، فقالت خديجة ﵂: كلا، والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وَتُعِينُ على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة ﵂ حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن عم خديجة ﵂، وكان امرأ تَنَصَّرَ في الجاهلية، وكان يكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، فقالت له خديجة ﵂: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نَزَّلَ الله على موسى، ليتني أكون حيّا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: (أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ)، قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مُؤَزَّرًا. ثم لم يَنْشَبْ ورقة أن توفي، وفَتَر الوحي»[1]. أَي: سكن، وَتَأَخّر نُزُوله.

ثانياً: الدعوة السرية:

بعد نزول آيات المُدَّثِر قام رسول الله ﷺ يدعو مَن يثق به مِن أهله وأصدقائه إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام سراً، وذلك لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيّجهم، وينافي معتقداتهم، فيقفون عقبة في طريق الدعوة إلى الإسلام من أول يوم، فكان من الحكمة أن يكتم أمره حتى تتكون مجموعة تنتصر للدعوة، وتصبر على أذى الأعداء.

وهذا ما كان فقد استجاب لرسول الله ﷺ نفر من الصادقين، فكانت خديجة ﵂ أوّل الناس إيمانا بالله وبرسوله، ووقفت بجواره، تؤازره وتواسيه، وتخفّف عنه، ثمّ أسلم عليّ بن أبي طالب ﵁، وهو يومئذ ابن عشر سنين، وهو أول مَن آمن مِن

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ رقم الحديث (٣)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: بدء الوحي، رقم الحديث (١٦٠).

الصبيان، وأسلم زيد بن حارثة حِبّ رسول الله ﷺ، وهو أوّل مَن آمن مِن الموالي.

وأسلم أبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، وهو أول مَن آمن مِن الرجال. ثم دخل الناس في الإسلام أرْسالًا من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وَتُحدّثَ به[1]. واستمرت الدعوة سِرّية ثلاث سنوات على المشهور[2].

ثالثاً: الجهر بالدعوة:

انتهت مرحلة الدعوة السرية بنزول قوله تعالى: ﴿ **فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾ (الْحِجْرِ: ٩٤)، فامتثل الرسول ﷺ أمر ربّه، وأظهر الدّعوة إلى الله تعالى، ولما نزل قوله تعالى: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ** ﴾ (الشُّعَرَاء: ٢١٤) خرج رسول الله ﷺ حتى صعد جبل الصفا، ونادى بأعلى صوته: يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش، فقال: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تُغِير عليكم، أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟) قالوا: نعم، ما جَرَّبْنَا عليك إلا صِدْقًا، قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)، فقال أبو لهب: تَبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جَمَعْتَنَا؟ فنزلت: ﴿ **تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ** ﴾ (المسد: ١ – ٢)[3].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (١/ ٢٤٩ – ٢٦٢)، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، لمحمد أبي شهبة (١/ ٢٨٣) وما بعدها.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (١/ ٢٦٢)، وتلقيح فهوم الأثر، لابن الجوزي (١/ ١٩)، وزاد المعاد، لابن القيم (١/ ٨٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ** ﴾، رقم الحديث (٤٧٧٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: في قوله تعالى: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ** ﴾، رقم الحديث (٢٠٦).

ولم تواجه قريش رسول الله ﷺ في أول الأمر، ولم تناصبه العداء حتّى ذكر آلهتهم التي يعكفون على عبادتها بسوء، وبيّن أنها لا تملك ضرّا ولا نفعا، فحينئذ اشتدّ ذلك عليهم، وأجمعوا له الشّرّ، وبدأ طور المحنة والبلاء، فأوذي النبي ﷺ أشد الإيذاء، قال ﷺ: (لقد أُخِفْتُ في الله وما يُخَافُ أحد، ولقد أُوذِيتُ في الله وما يُؤْذَى أحد)[1].

وأما الصحابة رضي الله عنهم فقد تجرعوا ألوانا من الظلم والعذاب، ولم يُثْنِهم ذلك عن دين الله شيئا، فمن هؤلاء آل ياسر الذين كان المشركون يخرجونهم إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، ويلبسونهم دروع الحديد المحماة بالنار، فمرّ بهم النبيّ ﷺ وهم يعذّبون فقال: (صبرا آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة)[2]، ومنهم بلال بن رباح رضي الله عنه، فقد لاقى من صناديد قريش أنواعًا من الأذى التي يعجز عن تحمُّلها البشر، حتى إنهم ألبسوه أدرع الحديد، وصهروه في الشمس المحرقة[3].

وفي وسط هذه الشدائد قيض الله عمه أبا طالب لمؤازرته ومناصرته فكان يقف لقريش بالمرصاد، حتى إن قرش بعثوا إليه وفدا من أشرافهم؛ ليقنعوه بالتخلي عن

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢١/٤٤٣)، (١٤٠٥٥)، والترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة، رقم الحديث، رقم الحديث (٢٤٧٢)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥/٢٦٠).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، باب: ذكر مناقب عمار بن ياسر رضي الله عنه، (٣/٤٣٢)، وصححه الألباني في فقه السيرة، ص (١١١).

(٣) خبر صبر الصحابة على الأذى وثبات بلال رضي الله عنهم؛ رواه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، باب: ذكر بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ، رقم الحديث، (٥٢٣٨)، والحديث صححه الألباني في صحيح السيرة النبوية ص (١٢١).

إسناده وحمايته، وعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، فبعث إلى رسول الله ﷺ يحدثه في ترك أمره، فقال ﷺ: (يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظْهِرَهُ اللَّه أو أهلكَ فيه، مَا تَرَكْتُه)[1]. ثم قام، فلما وَلَّى ناداه أبو طالب، فقال: اذهب، يا بن أخي، فقل ما أحببت، فو الله لا أُسْلِمُكَ لشيء أبدا[2].

***

المسلمون بين هجران الديار ومرارة والحصار

أولاً: الهجرة إلى الحبشة:

لما اشتدّ أذى المشركين على من آمن، وضاقت أرض مكة عليهم، قال لهم رسول الله ﷺ: (إنَّ بأرضِ الحبشةِ مَلِكاً لا يُظلمُ أحدٌ عنده، فالحقُوا ببلادِه حتّى يجعل اللهُ لكم فرجاً ومخرجاً مّما أنتُم فيهِ)[3]. فخرجت عند ذلك جماعة من المسلمين إلى أرض الحبشة؛ في رجب من السنة الخامسة من البعثة، وعددهم أحد عشر رجلا، وأربع نسوة على المشهور[4]، فأقاموا في خير جوار من النجاشي. لكن بلغهم بعد حين أن قريشا أسلمت، فعاد منهم قوم. فلما قَدِمُوا إلى مكة بلغهم أن خبر إسلام أهل مكة

(١) هذه رواية ابن إسحاق بسند منقطع، كما في سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٢٦٦/١). وقد أخرج هذه القصة الطبراني بسند حسن في المعجم الأوسط (٢٥٣/٨)، رقم الحديث (٨٥٥٣) بلفظ مختلف.

(٢) دلائل النبوة، للبيهقي (١٨٨/٢)، والبداية والنهاية، لابن كثير (١٠٨/٤).

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب الإذن بالهجرة، رقم الحديث (١٧٧٣٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٧٧/٧).

(٤) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (١٨٨/٧).

كان كذبا، فرجع منهم من رجع إلى الحبشة، ودخل جماعة مكة مستخفيا أو في جوار رجل من قريش، فلقوا من قريش أذى شديداً، فأذن النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة ثانية. وكان عدد المهاجرين في هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلاً وثمان عشرة امرأة. فأقاموا عند النجاشي على أحسن حال[1].

ثانياً: المقاطعة العامة والحصار الاقتصادي

أيّد الله الدعوة بإسلام حمزة بن عبد المطلب، وعمر الخطاب رضي الله عنه، فأفزع ذلك قريشا لما رأوا من عز الإسلام بهما، ونصر ملك الحبشة للمسلمين، فأجمعوا على أن يقتلوا النبي ﷺ، فبلغ ذلك أبا طالب، فطلب من بني عبد مناف أن يناصروه في منع النبي ﷺ، ولم يجبه من بني عبد مناف إلا بنو المطلب الذين كانوا مع بني هاشم جاهلية وإسلاما.

فلما رأت قريش ذلك تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب، أن لا يُناكحوهم، ولا يُبايعوهم، ولا يُكلّموهم حتى يُسْلِمُوا إليهم النبي ﷺ ليقتلوه[2]، وكتبوا بذلك صحيفة، وعلقوها في جوف الكعبة، وذلك في محرّم سنة سبع من النبوّة.

وأقام بنو هاشم على ذلك حتّى جَهدوا من شدة الحصار، واشتد عليهم البلاء، وأكلوا ورق السَّمُر، وقد ومكثوا على ذلك نحو ثلاث سنوات، لا يصل إليهم شيء إلا سرّا، ممن أراد صلتهم من قريش.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (١/٣٣٠) وما بعدها، وزاد المعاد، لابن القيم (١/٩٥).

(٢) خبر تحالف قريش: رواه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب: نزول النبي ﷺ مكة، رقم الحديث (١٥٩٠).

وكانت قريش في ذلك بين راض وكاره، فسعى في نقض الصحيفة مَن كان كارها لها، وكان القائم بذلك هشام بن عمرو بن الحارث، مشى في ذلك إلى المطعم بن عدي وجماعة من قريش، فأجابوه إلى ذلك، ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم، وأنه أرسل عليها الأرضة، فأكلت جميع ما فيها من جَوْر وقطيعة وظُلم إلا ذكر الله ﷻ فخرج أبو طالب إلى قريش، فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال: كذا وكذا، فإن كان كاذبا خلينا بينكم وبينه، وإن كان صادقا رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا، قالوا: قد أنصفت، فأنزلوا الصحيفة، فلما رأوا الأمر كما أخبر به رسول الله ﷺ ازدادوا كفرا إلى كفرهم، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب في السنة العاشرة من المبعث[1].

***

عام الحزن ومحنة الطائف

أولاً: عام الحزن:

لم تَمْضِ مدة طويلة على خروج المسلمين من الحصار حتى مرض أبو طالب، واشتد مرضه، فلم يلبث أن وافته المنية في رجب، سنة عشر من النبوة، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر، وكان رسول الله ﷺ حريصا أشد الحرص على إسلام عمه، ولما أشرف على الموت أتاه يدعوه للإسلام، ولكن شياطين قريش حالت بينه وبين ذلك، وأخذته العزة بالإثم، فأبى إلا أن يموت على مِلّة عبد المطلب[2].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (١/ ٣٥٠) وما بعدها، وزاد المعاد، لابن القيم (٣/ ٢٦ – ٢٨)، والبداية والنهاية، لابن كثير (٤/ ٢٠٧) وما بعدها.

(٢) خبر أبي طالب متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء»، رقم الحديث (٤٧٧٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: الدليل=

ولم تَمْضِ إلا أيام قلائل على موت أبي طالب حتى فجع رسول الله ﷺ بموت أحب الناس إليه، «فتوفيت خديجة رضي الله عنها، قبل مخرج النبي ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين»[1]، سنة عشر من البعثة، وهي يومئذ بنت خمس وستين سنة على المشهور[2]، فحزن عليها رسول الله ﷺ حزناً شديداً، وظل يذكرها بعد موتها، ويترحّم عليها، ويُكرم صديقاتها؛ وفاء لها.

وقد عظمت المصيبة على رسول اللَّه ﷺ بموت هذين النصيرين، فقد كانت خديجة رضي الله عنها له وزير صدق على الإسلام، يشكو إليها، وكان أبو طالب، عَضُدًا له وَحِرْزًا وَمَنَعَةً وناصرا على قومه، فلما هلك نالت قريش منه ﷺ ووقع من أذاها ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، واشتهر هذا العام عند أهل التاريخ والسير بعام الحزن؛ وذلك لتوالي الأحزان والآلام فيه على رسول الله ﷺ، وشدتها عليه، ولم يثبت أن النبي ﷺ سمّاه بهذا الاسم.

ثانياً: محنة الطائف:

لما اشتدّ أذى قريش على الرسول ﷺ بعد وفاة عمه وزوجه، وجاهروه بالبغي والعدوان، أخذ ﷺ يبحث عن بلد آخر يقبل دعوته، وينصر دين ربه، فتوجه إلى

=على صحة إسلام من حضر الموت، رقم الحديث (٢٤).

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب: تزويج النبي ﷺ عائشة، رقم الحديث (٣٨٩٦).

(٢) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر (١/٣٨)، وسبل الهدى والرشاد، للصالحي (٢/٤٣٤). وروى الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، باب: ومنهم خديجة بنت خويلد رقم الحديث (٤٨٣٨) بسنده عن هشام بن عروة قال: «توفيت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وهي ابنة خمس وستين سنة». لكنه رجح خلافه، فقال: «هذا قول شاذ، فإن الذي عندي أنها لم تبلغ ستين سنة».

الطائف ماشيا، ومعه مولاه زيد بن حارثة، ولما انتهى إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادتها وأشرافها، فجلس إليهم، ودعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم من أجله، فردوا عليه ردا منكرا. فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقد يئس منهم، فأقام بالطائف عشرة أيام لا يدع أحدا من أشرافهم إلا جاء إليه وكلّمه، فلم يجيبوه، وخافوا على أحداثهم منه، فقالوا: يا محمد، اخرج من بلدنا. وَأَغْرَوْا به سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه، ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس، ووقفوا له صفّين على طريقه، يرمونه بالحجارة حتى أدموا رجليه، وزيد بن حارثة رضي الله عنه يقيه بنفسه حتى أصابه شجاج في رأسه، فلما ابتعد عن الطائف لجأ إلى حديقة مملوكة لعتبة وشيبة ابني ربيعة، فاحتمى بها، وجلس في ظل شجرة من أشجارها، وقد أجهده التعب، وضاق صدره، واشتد به الكرب والبلاء.

فلما رأى ابنا ربيعة ما لقي النبي ﷺ تحركت له رَحِمُهُمَا، فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له: عَدّاس، فقالا له: خذ قِطفًا من هذا العنب، ثم اذهب به إلى هذا الرجل، فلما وضع رسول الله ﷺ يده فيه قال: (بسم الله)، ثم أكل، فنظر عدّاس في وجهه مستغربا، ثم قال: والله، إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد!! فقال له رسول الله ﷺ: (ومن أيّ البلاد أنت يا عدّاس، وما دينك)؟ قال: نصراني، وأنا من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ: (من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى؟ فقال له عَدّاس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: (ذاك أخي، كان نبيا، وأنا نبي). فَأَكَبَّ عَدَّاس على رسول الله ﷺ يُقَبِّل رأسه، ويديه، وقدميه!![1].

(١) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٤٢١/١)، وسبل الهدى والرشاد، للصالحي (٤٣٨/٢).

ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعا إلى مكة، وهو مهموم النفس مكلوم الفؤاد؛

وفي الطريق نزل رسول الله ﷺ بوادي نخلة، فقام يصلي من الليل، فصُرِف إليه نفرٌ من الجنّ، فاستمعوا له، وأسلموا.

وأقام رسول الله ﷺ بنخلة أياما، ثم أراد الرجوع إلى مكة، فأرسل رجلا من خزاعة إلى المطعم ابن عدي ليجيره، فأجابه إلى ذلك، ودعا بنيه وقومه، وقال: البسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أَجَرْتُ محمدا. فدخل رسول الله ﷺ، ومعه زيد بن حارثة رضي الله عنه، حتى انتهى إلى المسجد الحرام فاستلم الركن وصلى ركعتين[1].

***

الدروس المستفادة

- العلم شعار الإسلام الأول، فأوّل ما نزل من كتاب الله تعالى يأمر بالعلم والقراءة، والأمر بافتتاح القراءة باسم الله تعالى يدل على أهمية ارتباط العلم بالإيمان.

- مكارم الأخلاق سبب للسلامة من مصارع الشر والمكاره، فقد استبشرت خديجة رضي الله عنها بنصرة نبي الله لما عرف به في الجاهلة من محاسن الأخلاق.

- لا بد للداعية أن يتحلّى بالصبر على الأذى، ولا يضيق صدره بذلك، حتى يكسب قلوب العباد ويجعلهم مقبلين عليه، راغبين في دعوته.

- الأصل في الدعوة إلى الله هو الجهر عند الإمكان، أما إذا كانت الدعوة تواجه شدة يخشى منها على المؤمنين فإنّ الحكم حينئذ هو التخفي والإسرار.

---

(١) انظر: زاد المعاد، لابن القيم (٣/٣٠)، وسبل الهدى والرشاد، للصالحي (٢/٤٤٠).

- الدين أغلى وأسمى من كل شيء في الوجود، فإذا كان المسلم ببلد يُفتن فيه في إيمانه، ويُمنع من إقامة شعائر دينه شُرعت له الهجرة إلى بلد آخر.

***

أخي الطالب/أختي الطالبة:

للتوسع في موضوعات هذه الوحدة ينظر إلى:

١ – زاد المعاد لابن القيم.

٢ – الفصول في السيرة لابن كثير.

٣ – سبل الهدى والرشاد، للصالحي.

***

الوحدة الخامسة

من رحلة الإسراء والمعراج إلى الهجرة النبوية

أخي الطالب/ أختي الطالبة:

يتوقع – بعد دراستك لهذه الوحدة – أن تكون قادرا على:

١ – الإلمام بتفاصيل قصة الإسراء والمعراج.

٢ – معرفة ما قام به الرسول ﷺ من تضحيات في سبيل الدعوة إلى دين الله وما لاقاه في سبيل ذلك.

٣ – الوقوف على بعض معجزاته ﷺ التي أيده الله بها.

معجزة الإسراء والمعراج

الإسراء: هو ذهاب الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

والمعراج: هو الصعود بالرسول ﷺ من بيت المقدس إلى السموات السبع، وما فوقها، حتى بلغ سِدْرة المنتهى.

وكانت حادثة الإسراء والمعراج منحة ربانية لنبيه ﷺ، ورفعا لقدره، ودفعا لما أَلَمّ به من أتراح وآلام؛ إذ كانت بعد فقد الناصر الحميم، وهو أبو طالب، وفقد زوجته خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، وبعد ما ناله من سفهاء الطائف وصبيانها من أذى وابتلاء.

وقد بدأت رحلة الإسراء والمعراج بشقّ صدره ﷺ، وغسله بماء زمزم، وإفراغ الحكمة والإيمان في صدره[1]، وذلك ليتأهب للمناجاة، ويحمل ما يلقى إليه.

ثم أُسْرِيَ برسول الله ﷺ بجسده – على الصحيح – من المسجد الحرام إلى البيت المقدس راكبا على البراق صحبة جبريل عليه السلام فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب، ودخله، فصلّى فيه ركعتين. ثم أتى المعراج – وهو كالسُّلم ذو درج يرقى فيها – فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السماوات السبع، فتلقاه في كل سماء مقربوها، وسلّم عليه الأنبياء عليهم السلام الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرَّ بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم

(١) خبر ذلك متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب: كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم الحديث (٣٤٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: الإسراء برسول الله، رقم الحديث (١٦٣).

جاوز منزلتهما ﷺ وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي: أقلام القدَر بما هو كائن، ورأى سِدْرة المنتهى، وغشيها من أمر الله تعالى، عَظَمَةٌ عظيمة، من فَرَاشٍ مِنْ ذهبٍ، وألوان متعددة، وَغَشِيَتْهَا الملائكة، ورأى البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. ورأى الجَنّة والنار، وفرض الله ﷻ عليه هنالك الصلوات خمسين، فقال له موسى: ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف؛ فإن أُمَّتك لا يطيقون ذلك، فخفَّفَها الله إلى خمس؛ رحمةً منه ولطفا بعباده. ثم هبط إلى بيت المقدس، وصلّى فيه بالأنبياء؛ إظهارا لشرفِه وفضلِه عليهم بتقديمه في الإمامة، ثم خرج من بيت المقدْس، فركب البُراق، وعاد إلى مكة بِغَلَس[1].

ولما أصبح الرسول الله ﷺ في قومه أخبرهم برحلة الإسراء والمعراج وبما أراه الله ﷻ من آياته الكبرى، فاشتدَّ تكذيبهم له وأذاهم، واستنكروا أن يذهب إلى بيت المقدس، ويرجع في ليلة واحدة؟! فسألوه أن يصف لهم بيت المقدس، ولم يكن رآه قبل هذه الليلة، فَجَلَّاهُ الله له حتى عَايَنَهُ، فَطَفِقَ يخبرهم عنه، ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئا[2].

واشتملت هذه الرحلة النبوية الغيبية على إشارات حكيمة بعيدة المدى، فأعلنت

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥/٤٣). وانظر حادثة الإسراء والمعراج مفصلة في: صحيح البخاري وصحيح مسلم، في الموضعين المتقدمين آنفًا.

(٢) خبر ذلك متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿ **سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ** ﴾، رقم الحديث (٤٧١٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: ذكر المسيح ابن مرين، رقم الحديث (١٧٢).

أنّ محمدا ﷺ هو نبيّ القبلتين، وإمام المشْرقين والمغْربين، ووارث الأنبياء قبله، وإمام الأجيال بعده، فقد التقت في شخصه وفي إسرائه مكّة بالقدس، والبيت الحرام بالمسجد الأقصى، وصلّى الأنبياء خلفه، فكان هذا إيذانا بعموم رسالته وخلود إمامته[1].

وقد اختلف في تعيين زمن الإسراء والمعراج على أقوال شتى، ومما لا شك فيه أنه كان بعد البعثة، في أواخر العهد المكي، وقال الحافظ ابن رجب: كان قبل الهجرة بثلاث سنين، وهو أشهر[2].

***

عرضه ﷺ الإسلام في المواسم ومبايعة أهل يثرب له

أولاً: عرض الإسلام في المواسم:

كان رسول الله ﷺ يعرض دينه على قبائل العرب في مواسم الحجّ وفي أسواقهم وتجمّعاتهم، يتلو عليهم كتاب الله، ويدعوهم إلى الإسلام، فيقول: (يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا)[3]، ويطلب منهم النُصرة والإيواء، فيقول: (مَن يؤويني؟ من ينصرني، حتى أُبلِّغَ رسالة ربي، وله الجنّة؟)[4]، وكان أبو لهب

(١) انظر: السيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي ص (١٤٨).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب (٣٠٧/٢).

(٣) رواه ابن خزيمة في صحيحه، كتاب الوضوء، باب ذكر الدليل على أن الكعبين اللذين أمر المتوضئ بغسل الرجلين إليهما العظمان الناتئان، رقم الحديث (١٥٩)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٢٨٢/٩).

(٤) رواه أحمد في مسنده (٣٤٧/٢٢) رقم الحديث (١٤٤٥٦). وقال الحافظ ابن حجر: «إسناده حسن». انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢٢٢/٧):

وأبو جهل يتبعانه بالتناوب، ويشتمانه ويؤذيانه، ويُحذّران الناس منه[1].

وبينما كان رسول الله ﷺ يَعْرض دينه على قبائل العرب في كل موسم الحج، لقي عند العقبة رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا، فدعاهم إلى الله ﷻ، وَعَرَضَ عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وكان اليهود يجاورونهم في بلادهم، وكانوا إذا حصل بينهم شيء قالوا لهم: إن نبيا مبعوث الآن، قد أَظَلَّ زمانه، نَتَّبِعُهُ، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلّم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون – والله – إنه لَلنَّبِيُّ الذي تَوَعَّدَكُمْ به اليهود؛ فلا تسبقنّكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه وصدّقوه[2]. وكانوا ستة نفر.

فلما قَدِموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوْهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ[3].

ثانياً: بيعتا العقبة:

فلما كان موسم الحج من العام المقبل قَدِم على النبي ﷺ اثنا عشر رجلا من الأنصار، عشرة من الخزرج، واثنان من الأوس، فأسلموا، وبايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة، يقول عُبادَة بن الصّامِت رضي الله عنه – وكان من النُّقَبَاءِ الذين شهدوا بيعة العقبة –: «بايعتُ رسول الله ﷺ في رَهْطٍ، فقال: (أبايعكم على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تَسْرقوا، ولا تزنوا، ولا تَقْتُلوا أولادكم، ولا تأتوا ببُهْتَانٍ تفترونه بين أيديكم

(١) رواه أحمد في مسنده (١٤٨/٢٧)، رقم الحديث (١٦٦٠٣). وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح». تنظر: مجمع الزوائد (٢٢/٦).

(٢) دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني (٢٩٨/١)، ودلائل النبوة، للبيهقي (٤٣٤/٢).

(٣) سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٤٣٠/١).

وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وَفَى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا، فَأُخِذَ به في الدنيا فهو كفارة له وطهور، ومن ستره الله فذلك إلى الله، إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له)[1]. وكانت هذه بيعة العقبة الأولى.

فلمّا همّ القوم بالانصراف بعد البيعة بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير رضي الله عنه، وأَمَره أن يقرئهم القرآن، ويعلّمهم الإسلام، ويصلّي بهم[2]. فأسلم على يده خلق كثير من الأنصار وانتشر الإسلام في المدينة[3].

وبقي رسول الله ﷺ في مكة يُلاقي عنت قريش وأذاها الذي كان يشتدّ على مَرِّ الأيام، وحزّ ذلك في نفوس الأنصار، فاجتمعوا، وقرّروا أن يأتوا برسول الله ﷺ إلى المدينة، فقدم إلى مكة ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان للقاء رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، علَامَ نُبَايعُكَ؟ قال: (تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني، فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة)، فبايعوه على ذلك، وكان هذه بيعة العقبة الثانية.

وبعد هذه البيعة رأى النبي ﷺ دار الهجرة في منامه، فكان ذلك وحيًا من الله

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب: توبة السارق، رقم الحديث (٦٨٠١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب: الحدود كفارة لأهلها، رقم الحديث (١٧٠٩). واللفظ للبخاري.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (١/ ٤٣٤).

(٣) انظر: الدرر في اختصار المغازي والسير ص (٦٩)، والمواهب اللدنّية بالمنح المحمدية، للقسطلاني (١/ ١٦٥).

وإيذانًا له ﷺ بأن يأمر أصحابه بالهجرة إليها، فأذن لهم بالخروج إلى المدينة. فخرجوا إليها أرسالا، فارين بدينهم تاركين الدنيا خلف ظهورهم [1].

***

هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة

أولاً: مؤامرة دار الندوة ونجاة الرسول ﷺ من كيد المشركين:

لما رأت قريش أن الإسلام أضحى له في يثرب دارٌ يتحصن بها، توجّست خيفة من خروج رسول الله ﷺ إلى المدينة، وخشوا أن يقطع أهل المدينة طريق تجارتهم إلى الشام، فاجتمع أشرافهم في دار الندوة يتشاورون في أمر النبي ﷺ، وحَضَرهم وليُّهم وشيخهم إبليس في صورة شيخ كبير من أهل نجد، فتذاكروا أمرَ رسول الله، فأشار كل أحد منهم برأي، والشيخ يردُّه ولا يرضاه، إلى أن قال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريشٍ غلامًا نهدًا جلدًا، ثم نُعطيه سيفًا صارمًا، فيضربونه ضربةَ رجل واحد، فيتفرّق دمُه في القبائل، فلا تدري بنو عبد مناف بعد ذلك كيف تصنع، ولا يمكنها معاداة القبائل كلها، ونسوق إليهم ديته. فقال الشيخ: لله درّ الفتى، هذا — والله — الرأي. فأقرّوه، فنزل قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ** ﴾ (الأنفال: ٣٠)[2]، ففطن رسول الله ﷺ لمكيدتهم وأمر عليًّا أن يبيت في مضجعه تلك الليلة، متسجّيا ببردته،

---

(١) خبر رؤية رسول الله ﷺ دار الهجرة، رواه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، ذكر مناقب صهيب بن سنان، (٥٧٠٦) (٤٥٢/٣)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٤٨٠/١ — ٤٨٤)، وزاد المعاد، لابن القيم (٤٦/٣)، والبداية والنهاية، لابن كثير (٤٤١/٤ — ٤٤٢).

واجتمع أولئك النفر من قريش يتطلعون من شق الباب ويرصدونه، ويريدون بياته، فخرج رسول الله ﷺ عليهم فأخذ حفنة من البطحاء، فجعل ينثره على رؤوسهم، وهم لا يرونه، وهو يتلو: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ** ﴾ (يس: ٩)، ومضى رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر، فخرجا من خَوْخَةٍ في دار أبي بكر ليلا.

ثم لَحِقَ رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فَكَمَنَا فيه ثلاث ليال، وكانا قد استأجرا من بني الدِّيلِ، هَادِيًا ماهرا بالهداية – وهو على دين كفار قريش، فَأَمِنَاهُ، فَدَفَعَا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال[1].

وجُنَّ جنونُ قريش حين علمت أن النبي ﷺ أفلت من قبضتها، وأخذت تبحث عنه في كل مكان، وبعثوا القافة إثره في كل وجه، حتى انتهى بهم أثر الأقدام إلى غار ثور، ولم يبق بينهم وبين العثور على منشودهم إلا أن ينظر أحدهم إلى تحت قدميه، ولكنّ الله أعمى أبصارهم، وحال بينهم وبين ذلك، ولما رأى أبو بكر رضي الله عنه أقدام المشركين فوق رأسه خاف على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله لو أنّ أحدهم نظر إلى قدميه أَبْصَرَنَا تحت قدميه، فقال: (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[2].

ومرت الليال وجاء الهادي براحلتيهما، وانطلق معهما عامر بن فهيرة، والدليل،

---

(١) خبر استئجار النبي ﷺ هاديا، رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب: إذا استأجر أجيرا ليعمل له بعد ثلاثة أيام، رقم الحديث (٢٢٦٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب: مناقب المهاجرين وفضلهم، رقم الحديث (٣٦٥٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي بكر الصديق، رقم الحديث (٢٣٨١).

فأخذ بهم طريق السواحل[1].

ثانياً: معجزات في طريق الهجرة:

شهدت طريق الهجرة معجزات كثيرة أيد الله بها نبيه ﷺ ومن ذلك ما يأتي: ما كان من أمر سراقة بن مالك، فقد سار في النبي ﷺ، فعثر به الفرس، فسقط عنه، فأبى إلا أن يتبعه، فعثر به الفرس مرة ثانية، وفي المرة الثالثة ساخت قوائمها في الرمال، فانتزعها من الأرض، فتصاعد منها دخان كالإعصار، فحينئذ أدرك سراقة أنّ رسول الله ﷺ محفوظ من الله، وأنه ظاهر لا محالة. فطلب الأمان من النبي ﷺ، وسعى في تأمينه[2].

ومن معجزات الهجرة ما كان في خيمة أم معبد الخزاعية حيث مرّ رسول الله ﷺ بها في طريقه إلى المدينة فسألوها لحما وتمرا؛ ليشتروا منها، فلم يصيبوا عندها شيئا من ذلك، وكان القوم فقراء لا زاد لهم فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في جانب الخيمة، فقال: (ما هذه الشاة يا أم معبد؟) قالت: شاة خَلَّفَهَا الْجَهْدُ عن الغنم، قال: (هل بها من لبن؟) قالت: هي أَجْهَدُ من ذلك، قال: (أتأذنين لي أن أَحْلُبَهَا؟) قالت: بأبي أنت وأمي، إن رأيتَ بها حَلَبًا فَاحْلُبْهَا، فدعا بها رسول الله ﷺ، فمسح بيده ضرعها، وسمى الله تعالى، ودعا لها في شاتها، وحلب في إناء حتى روي الجميع[3].

---

(١) خبر المواعدة مع الدليل، رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب: إذا استأجر أجيرا ليعمل له بعد ثلاثة أيام، رقم الحديث (٢٢٦٤)..

(٢) خبر سراقة متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب: علامات النبوة، رقم الحديث (٣٦١٥)، (٦٠/٥)، (٣٩٠٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب: جواز شرب اللبن، رقم الحديث (٢٠٠٩).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين، باب: كتاب الهجرة وقد صح أكثر أخبارها عند=

ثالثاً: استقبال الأنصار لرسول الله ﷺ:

لما سمع المسلمون بالمدينة بِمَخْرَج رسول الله ﷺ من مكة، كانوا يَغْدُونَ كل غداة إلى الحَرَّةِ، فينتظرونه حتى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَة، فانقلبوا يوما بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أَوَوْا إلى بيوتهم، أَوْفَى[1] رجل من يهود على أُطُمٍ[2] مِنْ آطَامِهِمْ، لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مُبَيَّضِينَ[3] يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جَدُّكُم[4] الذي تنتظرون. فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بِظَهْرِ الحَرَّةِ، فعدل بهم ذات اليمين، حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول[5].

وفرح الأنصار بمقدم النبي ﷺ وصاحبه فرحًا لا نظير له، يقول البراء بن عازب رضي الله عنه: «ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فَرَحَهُمْ به»[6]،

=الشيخين، رقم الحديث (٤٢٧٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير عن قصة أم معبد: «وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضا». البداية والنهاية ١٩٠/٣، وحسنها الألباني في تعليقه على فقه السيرة، ص (١٦٨).

(١) أَوْفَى: أَشْرَفَ، أي: اطَّلَعَ من علوّ. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (١٢/١٣).

(٢) أُطُم: بضم أوله وثانيه هو الحصن. انظر: المرجع السابق (٢٤٣/٧).

(٣) مُبَيَّضِين: أي: عليهم الثياب البيض. انظر: المرجع السابق، (٢٤٣/٧).

(٤) جَدّكم: حظكم وصاحب دولتكم الذي تتوقعون مجيئه. انظر: المرجع السابق (٢٤٣/٧).

(٥) خبر ذلك، رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، رقم الحديث، (٣٩٠٦).

(٦) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب: مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة، رقم الحديث (٣٧١٠).

وازدحم الناس عليهما حتى امتلأت الطرقات، وكان في استقبالهما «زهاء خمسمائة من الأنصار»[1].

وأقام رسول الله ﷺ بقباء أياماً، قيل: أربعة عشر يوماً، وكان أول عمل أنجزه أثناء إقامته هو تأسيس مسجد قباء، وهو أول مسجد أُسِّس بعد النبوة، ثم ركب بأمر الله تعالى فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلاّها في المسجد الذي في بطن الوادي، ورغب إليه أهل تلك الدار أن ينزل عليهم، فأخذوا خِطام راحلته، وقالوا: هَلُمَّ إلى العدد والعُدّة والمَنَعَة، فقال: (دَعُوهَا فإنها مَأْمُورَةٌ)، فلما جاءت موضع مسجده اليوم بَرَكَتْ، ولم ينزل عنها ﷺ حتى نهضت، وسارت قليلاً، ثم رجعت، فبركت في موضعها الأول، فنزل عنها ﷺ، فحمل أبو أيوب رضي الله عنه رَحْل رسول الله ﷺ إلى منزله. وأراده قوم في النزول عليهم، فقال: (المرء مع رحله)، فأقام ﷺ عند أبي أيوب حتّى بنى مسجده ومساكنه[2].

***

الدروس المستفادة

- أهمية الصلاة وشرفها؛ فقد أمر الله بها من فوق السماء السابعة، في أعلى مكان وصله بشر، وفرضها دون واسطة بينه وبين نبيه.
- المسلم ينتهز كل فرصة، ويستغل كل مناسبة يجتمعُ فيها الناس لدعوتهم إلى

(١) خبر ذلك، رواه أحمد في مسنده (٢١/٤١)، (١٣٣١٨). وصححه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (١/٤٩٤ – ٤٩٦)، وزاد المعاد، لابن القيم (٣/٥٢ – ٥٣)، والفصول في السيرة، لابن كثير، ص (١١٨). وانظر أصل القصة في: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، رقم الحديث (٣٩٠٦).

الله تعالى ؛ فقد كان ﷺ يذهب إلى الناس في المواسم.

- المؤمن يتوكل على ربه، ويثق بنصره وتأييده، مستلهما ذلك من ثقة رسول الله بنصر الله، وقد وقف المشركون فوق رؤوسهم في الغار.

- الأخذ بالأسباب المشروعة لا ينافي التوكل على الله، فالرسول ﷺ استعان بدليل يدله على الطريق في سفر هجرته، واختار غار ثور للاختباء فيه ثلاثاً.

- في إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله ﷺ مع معاداتهم له، واتهامهم له بالسِّحرِ والكذب، دليل على تناقضهم، وأنهم في قرارة نفوسهم يصدقونه.

- أمر الأمانة عظيم في الإسلام، أَمَر الله بحفظها وأدائها، صغيرة كانت أو كبيرة، وقد كان ﷺ أحرص الناس على أدائها إلى أهلها، ولو كانوا كفارا.

- في الهجرة منقبة عظيمة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، إذ اختاره رسول الله ﷺ ليكون رفيقه في الهجرة، وصاحبه في الغار.

- أهمية رسالة الشباب في نصرة الدين وبناء الأمة، ويتجلّى ذلك في نوم علي بن أبي طالب رضي الله عنه في فراش النبي ليلة الهجرة، حيث فدى النبي ﷺ بحياته.

***

أخي الطالب/أختي الطالبة:

للتوسع في موضوعات هذه الوحدة ينظر إلى:

١ – السيرة النبوية لابن هشام.

٢ – السيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي.

٣ – زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم

***

الوحدة السادسة

أحداث وتشريعات شكلت ملامح المجتمع الإسلامي في المدينة

أخي الطالب/ أختي الطالبة:

يتوقع – بعد دراستك لهذه الوحدة – أن تكون قادرا على:

١ – الإلمام بسنة النبي ﷺ في بدايات تكوين الدولة الإسلامية.

٢ – الوقوف على أهم التشريعات الأحداث التي أثرت في تشكيل وتمييز المجتمع المسلم في المدينة.

بناء المجتمع المسلم

أولاً: بناء المسجد النبوي:

كانت الخُطوة الأولى في المدينة بعد وصول الرسول ﷺ إليها هو بناء المسجد النبوي، وذلك في المكان الذي بركت فيه الناقة، وكان في الأصل حائطا – بستانا – لغلامين يتيمين من بَنِي النَّجَّار، «فدعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما، فقالا: لا، بل نَهَبُهُ لك يا رسول الله، فأبى رسول الله أن يَقْبَله منهما هبةً حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدا، وَطَفِقَ رسول الله ﷺ ينقل معهم اللَّبِنَ في بنيانه، ويقول:

هَـذَا الْحِمَـالُ لَـا حِمَـال خَيْبَـرْ[1] ❖ هَـــذَا أَبَـــرُّ رَبَّنَـــا وَأَطْهَـــرْ

وَيَقُولُ:

اللَّهُـمَّ إِنَّ الأَجْـرَ أَجْـرُ الآخِـرَةِ ❖ فَـارْحَمِ الأَنْـصَارَ وَالْمُهَـاجِرَهْ»[2]

وكان المسجد في هذا العهد يعد مركزا للمجتمع المسلم، حيث كان مؤسسة لقيادة الدولة، ومسجدا للعبادة، ومعهدا للتعليم، ومحكمة للقضاء، وملازا لجميع أطياف المجتمع، فكان بحق أول خُطوة في بناء الدولة الإسلامية الحديثة.

ثانياً: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

أرسى الرسول ﷺ قواعد المجتمع المدني على أساس رابطة العقيدة والإيمان، فتوحّدت صفوفهم، واجتمعت كلمتهم، فشرع نظام المؤاخاة، وجعل له من الحقوق والواجبات ما لِأُخُوَّة النسب؛ فآخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار

---

(١) أي: هذا الذي نحمله من الحجارة أطيب عند الله وأعظم أجرا مما يحمله الناس من خيبر من التمر والزبيب ونحوهما.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي وأصحابه، رقم الحديث (٣٩٠٦).

أنس بن مالك ﷺ، وكانوا تسعين رجلا، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، يتوارثون بعد الموت، دون ذوي الأرحام[1]، فأظهر الأنصار من الكرم والتعاون ما خفّف عن المهاجرين آلام الغربة، فأسكنوهم منازلهم، وبذلوا لهم أموالهم، حتى عرضوا على رسول الله ﷺ أن يتقاسموا الثروة بينهم وبين إخوانهم، فأبى المهاجرون إلا المشاركة في العمل[2]، وكان الواحد منهم يتسابق إلى بذل ما عنده، حتّى يؤول الأمر إلى الاقتراع، تقول أمّ العلاء الأنصارية ﷺ: «لما قدم المهاجرون المدينة اقْتَرَعَتِ الأنصار على سَكَنِهم، فَطَارَ لنا عثمان بن مظعون في السُّكنى»[3]. وقد مدحهم القرآن بذلك، فقال: ﴿ **وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ (الحشر: ٩). وقد استمر التوارث بنظام المؤاخاة إلى ما بعد غزوة بدر الكبرى، ثم أُبطِل التوارث بالتآخي، وصار على أساس النسب والرَّحم[4].

***

(١) زاد المعاد، لابن القيم (٥٦/٣).

(٢) خبر ذلك، رواه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب: إذا قال: «اكفني مؤونة النخل...»، رقم الحديث (٢٣٢٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة، رقم الحديث (٣٩٢٩). ورواه أحمد في مسنده (٤٥١/٤٥)، (٢٧٤٥٨)، واللفظ له.

(٤) خبر ذلك رواه البخاري في صحيحه، كتاب الكفالة، باب: قول الله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ** ﴾، رقم الحديث (٢٢٩٢).

أحداث وتشريعات مهمة في الدولة الإسلامية الجديدة

أولاً: إسلام حبر اليهود عبد الله بن سلام:

كان عبد الله بن سلام من أحبار اليهود الذين يعرفون صفة النبي المنتظر، وينتظرون خروجه، ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة النبوية بادر بالإسلام.

ولقد حدث عبد الله بن سلام رضي الله عنه عن إسلامه فقال: لما سمعتُ برسول الله ﷺ، وعرفتُ صفته واسمه وهيئته وزمانه الذي كنا نَتَوَكّفُ له، (أي: ننتظر) فكنت بقباء مُسِرّا صامتاً عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلمّا قدم نزل بقباء في بني عمرو ابن عوف، فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلما سمعتُ الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبّرت، فقالت عمتي حين سمعت تكبيري: لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زدت، قال: قلت لها: أي عمّة، والله هو أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بُعث بما بُعث به. **فقالت: يا ابن أخي، أهو الذي كنّا نخبر أنّه يبعث مع الساعة؟ قلت: نعم، قالت: فذاك إذاً**[1].

وفي رواية أخرى قال: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انْجَفَلَ[2] الناسُ إليه، وقيل: قَدِم رسول الله ﷺ، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما اسْتَبَنْتُ وجه رسول الله ﷺ عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال:

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٥١٦/١)، ودلائل النبوة، للبيهقي (٥٣٠/٢). وقصة إسلامه رواها البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، رقم الحديث (٣٩١١).

(٢) انْجَفَل الناس: أَي ذَهبوا مُسرِعين نَحوه. انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير (٢٧٩/١).

(يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام)[1].

وحدّث أنس ﷺ عن إسلام عبد الله فقال: «بلغ عبد الله بن سلام مَقْدَمُ رسول الله ﷺ المدينة فأتاه، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يَعلَمُهنّ إلا نبي قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء يَنْزِعُ الولد إلى أبيه؟ ومن أي شيء يَنْزِعُ إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ (خَبَّرَنِي بهنّ آنفا جبريل)، فقال عبد الله: ذاك عدوّ اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: (أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الشَّبَهُ في الولد فإن الرجل إذا غَشِيَ المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها) قال: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهُت[2]، إن عَلِموا بإسلامي قبل أن تسألهم بَهَتُونِي – أي: كذبوا عليّ – عندك، فجاءت اليهود، ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله ﷺ: (أيّ رجل فيكم عبد الله بن سلام؟) قالوا: أَعْلَمُنَا، وابن أَعْلَمِنَا، وَأَخْيَرُنَا، وَابْنُ أَخْيَرِنَا، فقال رسول الله ﷺ: (أفرأيتم إن أسلم عبد الله) قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله إليهم، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، فقالوا: شَرُّنَا، وابن شَرِّنَا، ووقعوا فيه»[3].

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في فضل إطعام الطعام، رقم الحديث (٢٤٨٥)، وقال: «هذا حديث صحيح»، والحديث صححه الترمذي في صحيح الجامع الصغير (١٢٩٨/٢).

(٢) بُهُت: جمع بَهوت، وهو كثير البهتان. انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني (٢١١/١٥).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: خلق آدم وذريته، رقم الحديث (٣٣٢٩).

ثانياً: تشريع الأذان:

فرضت الصلوات الخمس في ليلة الإسراء والمعراج، ولم يكن للمسلمين بمكة مسجد يجتمعون للصلاة فيه، فلما هاجروا إلى المدينة، وبنوا المسجد، كانوا يجتمعون للصلاة في مواقيتها من غير نداء لها، فشعروا بالحاجة إلى أداة تجمعهم في وقت واحد؛ لإقامة الصلوات المكتوبة، وكَرِه رسول الله ﷺ طُرق الإعلان التي اعتادها اليهود والنصارى من بوق وناقوس ونار، فأكرم الله المسلمين بالأذان، روى عبد الله بن زيد الأنصاري رضي الله عنه: أنه رأى الأذان في المنام، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما رأى، فقال ﷺ: (إنها لرؤيا حق، إن شاء الله، فقم مع بلال، فَأَلْقِ عَليه ما رأيتَ فليؤذّن به؛ فإنه أنْدَى صوتا منك) فقمت مع بلال، فجعلتُ أُلْقِيه عليه ويؤذّن به[1].

ثالثاً: تحويل القبلة:

كان رسول الله ﷺ يُصلّي بمكة إلى بيت المقدس، والكعبةُ بين يديه، فلما هاجر إلى المدينة لم يمكنه أن يجمع بينهما، فصلّى إلى بيت المقدس أول مَقْدَمِهِ المدينة، واستدبر الكعبة ستة عشر شهرا، أو سبعة عشر شهرا. وكان ﷺ يحب أن تُصرف قبلته نحو الكعبة قبلة إبراهيم عليه السلام، وكان يكثر الدعاء والتضرع والابتهال إلى الله عز وجل فكان يرفع يديه وطرفه إلى السماء سائلا ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ** ﴾ (البقرة: ١٤٤). فلما نزل الأمر بتحويل القبلة خطب رسول الله ﷺ

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب: كيف الآذان، رقم الحديث (٤٩٩)، والحديث حسنه الألباني في إرواء الغليل (٢٦٥/١).

المسلمين، وأعلمهم بذلك[1].

وكان التحويل في منتصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح، وبه جزم الجمهور، ورواه الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنه[2].

رابعاً: فرض صيام رمضان:

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، ويصوم عاشوراء، ويأمر بصيامه، وفي شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض الله تعالى، الصيام، وجعله ركناً من أركان الإسلام، فأنزل قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ** ﴾ (البقرة: ١٨٣)، فصام رسول الله ﷺ تسع رمضانات[3].

وفُرض أولا على وجه التخيير بينه وبين الإطعام، ثم أصبح لازما على المستطيع، وشرع الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام[4].

خامساً: فرض الزكاة:

في السنة الثانية للهجرة شرع الله سبحانه وتعالى زكاة الفطر، ثم فرض الزكاة المقدّرة بالنُّصُبِ والمقادير الخاصة في أموال الأغنياء، وجعلها رُكنا من أركان الإسلام، وكان

---

(١) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير (٥/٤٧ – ٤٨)، وخبر تحويل القبلة متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب: التوجه نحو القبلة، رقم الحديث (٣٩٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب: تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، رقم الحديث (٥٢٥).

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (١/٩٧).

(٣) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني (١٠/٢٥٤)، وزاد المعاد، لابن القيم (٢/٢٩).

(٤) خبر ذلك: رواه أحمد في مسنده، (٣٦/٤٣٨)، والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/٤٣٠).

ذلك بعد فرض الصيام، قال الحافظ ابن كثير: «وفيها – أي السنة الثانية – فُرضت الزكاة ذات النُّصُبِ، وفُرضت زكاة الفطر»[1]، أما أصل الزكاة فكانت واجبة بمكة على الأرجح، من غير تقييد بنصاب أو حول[2].

سادساً: الإذن بالجهاد ومراحل تشريعه:

مكث رسول الله ﷺ بمكة يدعو إلى الله، تبارك وتعالى، ويلقى من عنت قريش وعداوتهم وأذاهم له ولأصحابه الشيء الكثير، وهم صابرون محتسبون، وممنوعون من القتال، فلما هاجروا إلى المدينة؛ فرارًا بدينهم، صادر كفار قريش أموال وعقارات المسلمين، وبادروا بإعلان الحرب عليهم، وسعوا بشتى الطرائق لإثارة الفتن في داخل المدينة، وتأليب الأعداء عليهم، واستعانوا بعميلهم عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، فعاش المسلمون في المدينة يحدق بهم الخطر من كل جانب، فحينئذ أذن الله تعالى، للمسلمين بالجهاد؛ دفاعا عن النفس والإيمان؛ قال ابن القيم: «فلما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة، وأيده الله بنصره بعباده المؤمنين الأنصار، وألّف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التي كانت بينهم، فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسْوَد والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم – رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشَمّروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب، والله سبحانه، يأمرهم بالصبر والعفو والصفح حتى قويت الشَّوْكَةُ، واشتدَّ الجناح، فأذن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ**

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (٥/٣١٢).

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح، للملا علي القاري (٤/١٢٦٠).

﴿عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩). وهي أول آية نزلت في القتال.

ثم فُرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون مَن لم يقاتلهم، فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ (البقرة: ١٩٠).

ثم فُرض عليهم قتال المشركين كافة، وكان مُحرّما، ثم مأذونا به، ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورا به لجميع المشركين، إما فَرْض عين على أحد القولين، أو فَرْض كفاية على المشهور»[1].

المقصود من الجهاد:

الغاية من الجهاد في الإسلام هي تبليغ دين الله، ودعوة الناس إليه، وإخراجهم من الظّلمات إلى النور، وانتشالهم من وَهدة الشرك وعبادة العباد إلى رفعة الإسلام وعبادة رب العباد. وليس المقصود منه سفك الدماء وأخذ الأموال، وأما القتال فهو وسيلة لدفع الظلم والاعتداء، والتمكين للدعوة الإسلامية، حتى يدخل الناس في دين الله، تعالى، مختارين من غير فتنة.

* * *

الدروس المستفادة

- المسجد أهم ركيزة في بناء المجتمع الإسلامي؛ ومن أجل ذلك كان أول ما قام به رسول الله ﷺ بعد قدومه المدينة هو بناء المسجد، حتى يجتمع فيه المسلمون.

- الأُسوة الحسنة والقدوة العملية أبلغ وأكثر تأثيرا من الأقوال النظرية؛ فالنبي ﷺ شارك في بناء المسجد بنفسه مع أصحابه، فكان يحمل الحجارة، وينقل اللَّبن

(١) زاد المعاد، لابن القيم (٦٢/٣ – ٦٤).

على صدره وكتفيه، لا فرق في ذلك بين رئيس ومرؤوس.

- الإسلام أوجب الأُخُوة بين المسلمين، وجعل ذلك من سمات المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠)، وأوجب الولاءَ والنصرة بالدين؛ قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ (التوبة: ٧١)، فكل من كان مؤمنا، فهو نصير لجميع المؤمنين. ويتجلى ذلك في مؤاخاة الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، إذ قدم الأنصار المثل الصادق للأخوة الإسلامية والمحبة في الله ﷻ.

- في تشريع الأذان دليل على أهمية صلاة الجماعة، فالنبي ﷺ كان مهتما بجمع الناس لأداء هذه الفريضة، ويبحث عن وسيلة تعينهم على ذلك، فلما شرع الأذان شدّد في أمر الجماعة، ولم يُرخّص في التخلف لمن سمع النداء؛ كما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجل أعمى، فقال: يا رسول الله، إنه ليس لي قائد يَقُودُنِي إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يُرَخِّصَ له، فيصلي في بيته، فَرَخَّصَ له، فلما وَلَّى دعاه، فقال: (هل تسمع النداء بالصلاة؟)، قال: نعم، قال: (فَأَجِبْ)[1].

- أرسى الإسلام قواعد التكافل الاجتماعي، فشرع الزكاة مواساة للفقراء والمعوزين، وجعل في أموال الأغنياء حقا لليتامى والمساكين، وحثّ على الصدقة على الضعفاء والمحتاجين، وإغاثة الملهوفين، ومساعدة المنكوبين، والتفريج عن المكروبين. وبذلك تسود الألفة والمودة بين أفراد المجتمع، وهو سبيل نهضة الأمة وتكاتفها.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب: يجب إتيان المساجد على من سمع النداء، رقم الحديث (٦٥٣).

- من حكمة الله تعالى، التدريج في التشريع شيئاً فشيئاً، والبدء بالأيسر؛ حتى تتهيأ النفوس لتلقي الحكم الأشد، وتنقاد له؛ فالصيام كان يوما واحدا، وهو عاشوراء، ثم شرع صوم رمضان على وجه التخيير بينه وبين أن يُطْعِم عن كل يوم مسكينا، فلما ألفوه فُرض عليهم الصوم، وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة إذا لم يطيقا الصيام.

- شرع الله تعالى، الجهاد في الوقت الأليق به؛ لأن المسلمين لما كانوا في مكة كان المشركون أكثر عددا، فلو أُمر المسلمون – وهم أقل من العُشر بقتال الباقين – لشقَّ عليهم، فلمّا بَغَى المشركون، وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم، وهَمّوا بقتله، واستقر ﷺ بالمدينة، واجتمع عليه أصحابه، وقاموا بنصره، وصارت المدينة دار إسلام، ومعقلا يلجؤون إليه شرع الله جهاد الأعداء[1].

- غاية الجهاد أن تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله وحده؛ قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ (البقرة: ١٩٣)، والقتال إنما هو لدفع الظلم، والتمكين للدعوة الإسلامية، وإزالة العوائق، حتى يتمكن مَن أراد الدخول في الإسلام مِن ذلك، ويتيسر له أداء شعائر الله، دون أية عقبات تضعها قوى الشرك. وليس المقصود منه القتل والنهب والتسلط على أموال الناس وأراضيهم، أو حمل الناس على الدخول في الإسلام كرها.

***

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/٤٣٤).

أخي الطالب/أختي الطالبة:

للتوسع في موضوعات هذه الوحدة ينظر إلى:

١ – السيرة النبوية لابن هشام.

٢ – زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم.

٣ – مختصر سيرة النبي ﷺ، لمحمد بن عبد الوهاب.

* * *

الوحدة السابعة

الغزوات والسرايا الأولى

أخي الطالب/ أختي الطالبة:

يتوقع – بعد دراستك لهذه الوحدة – أن تكون قادرا على:

١ – الإلمام بأحداث غزوة بدر الكبرى، ونتائجها، والدروس المستفادة منها.

٢ – الإلمام بأحداث غزوة أحد، ونتائجها، والدروس المستفادة منها.

تمهيد

تعريف الغزوة والسَّرِيَّة

الغَزْوَةُ: المرّة من الغزو، والاسم: الغَزَاة[1]. والغزو هو: الطلب والقصد[2].

والسَّرِيَّةُ: القطعة من الجيش[3].

قال الزرقاني: «وقد جرت عادة المحدثين وأهل السِّيَر واصطلاحاتهم غالبا أن يُسمّوا كل عسكر حضره النبي ﷺ بنفسه الكريمة غزوة، وما لم يحضره، بل أرسل بعضا من أصحابه إلى العدو، سريةً وبعثًا»[4]. وربما سمَّوا بعض السرايا غزوة كما في مؤتة، حيث قالوا: غزوة مؤتة من باب التوسع.

***

غزوة بدر الكبرى

كانت غزوة بدر في شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة، وهي أول معركة في الإسلام، أعزّ الله بها الإسلام وأهله، وسمّاها «يوم الفرقان» فقال: ﴿ **إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ** ﴾ (الأنفال: ٤١)؛ وذلك لأنها فرَّقت بين أهل الحق والباطل.

أولاً: سبب الغزوة والاستعداد لها:

كان سبب غزوة بدر أن قافلة تجارية لقريش كانت قادمة من الشام بقيادة أبي

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٣٦٦/٣).

(٢) انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي، ص (١٣١٧)، مادة «غزو».

(٣) انظر: مختار الصحاح، للرازي، ص (١٤٧)، وتاج العروس (٢٦٤/٣٨»، مادة «سري».

(٤) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (٢٢٠/٢).

سفيان، فأراد رسول الله ﷺ أن يعترض طريق هذه القافلة؛ لكي يسترد بعض ما غصبته قريش من أموال المسلمين الذين أخرجتهم من ديارهم، ويوقف عدوان قريش التي كانت لا تألو جهدا في محاربة الإسلام، واضطهاد الداخلين فيه، وكانت تستخدم هذه الأموال وكلّ ما تملكه من حَوْل وطَوْل في ذلك، فلم يكن خروجه ﷺ للقتال، وإنما كان قصده هو القافلة.

ولما عزم رسول الله ﷺ على الخروج ندب أصحابه لذلك، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، ولم يكن معه من الخيل سوى فرس الزبير رضي الله عنه، وفرس المقداد رضي الله عنه، ومن الإبل سبعون بعيراً.

وكان أبو سفيان يتحسس الأخبار، فلما علم بخروج المسلمين بعث إلى مكة يستنفر قريشًا لِنجدة القافلة، فأجابته قريش بجيش قوامه ألف مقاتل، ومعهم مائة فرس وسبعمائة بعير، وقد تمكن أبو سفيان من الفرار بالقافلة عن طريق الساحل، لكن أبا جهل أبى الرجوع، وقال: والله لا نرجع حتى نَرِدَ ماء بدر، ونقيمَ عليه ثلاثاً، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، فتهابنا العرب أبداً.

ولما بلغ رسول الله ﷺ ما كان من قريش استشار أصحابه من المهاجرين في القتال فأجابوه وقال المقداد بن عمرو رضي الله عنه، : «يا رسول الله! امض لما أمرك الله، فنحن معك»، ثم استشار الأنصار فبادر سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: «والله لكأنّك تريدنا، يا رسول الله؟ فوالله، يا رسول الله، لو اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هذا البَحْرَ فخُضتَه لَخُضْنَاهُ معك»[1].

(١) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب: غزوة بدر، رقم الحديث (١٧٧٩).

وبات رسول الله ﷺ ليلة المعركة يصلي، ويدعو حتى أصبح[1]، وكانت ليلة السابع عشر من رمضان، فلما أصبح، وأقبلت قريش في كتائبها، لجأ إلى الله بالدعاء، فقال: (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تُحادُّك وتكذِّب رسولَك، اللهم فنصرَك الذي وَعَدْتنِي، اللهم أَحِنْهُمْ[2] الغداة)[3]، وما زال يهتف بربه، مادًّا يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربّك، فإنه سَيُنْجِزُ لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴾ (الأنفال: ٩) فأمدّه الله بالملائكة.

ثانياً: بَدْء المعركة وتحقق النصر

خرج ﷺ من العريش، وهو يقول: ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾ (القمر: ٤٥)»[4]. ولما اشتدت المعركة نزل يحوضها بنفسه، ويباشر القتال، وكان أشجع الشجعان؛ قال عليٌّ رضي الله عنه: «لقد رأيتُنَا يوم بدرٍ ونحن نَلُوذُ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدوّ، وكان من أشدّ الناس يومئذ بأساً»[5].

---

(١) خبر ذلك رواه أحمد في مسنده (٣٦٣/٢) رقم الحديث (١١٦١)، والحديث حسنه ابن حجر في الفتح (٥٨٠/١).

(٢) أحنهم – بفتح الهمزة وكسر الحاء المهملة وسكون النون – أي: أهلكهم. انظر: سبل الهدى والرشاد (١٤١/٤).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٦٢١/١)، ودلائل النبوة، للبيهقي (٣٥/٣).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿ **بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ** ﴾، رقم الحديث (٤٨٧٧).

(٥) رواه أحمد في مسنده (٨١/٢)، رقم الحديث (٦٥٤). وصححه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند.

ومنح الله المسلمين أكتاف المشركين، وأخذ المشركون يتساقطون في أرض المعركة، حتى قُتِل منهم سبعون، وأُسِر سبعون، وفرّ الباقون تاركين الغنائم خلفهم.

وأَمسك المسلمون عن الغنائم، ولم يمدوا أَيديهم إِليها حتى نزل قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٩)، فأباح لهم الغنائم[1]، وقد كانت الغنائم لا يحل أَخذها لأَحد قبل هذه الأُمَّة، وأمر ﷺ بقتلى المشركين، فألقوا في قَلِيب[2]، واستُشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا.

أمّا الأسرى فقد استشار ﷺ أصحابه فيهم: فأشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن يُقتَّلوا، وعلل ذلك بقوله: هؤلاء أئمّة الكفر وصناديدها. وأما أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقبل الرسول ﷺ مشورة أبي بكر رضي الله عنه، فنزل القرآن موافقًا لرأي عمر رضي الله عنه، وأجاز تصرف النبي ﷺ في أخذ الفداء، ولكن مع بعض العتاب، فقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٧ – ٦٨)[3].

* * *

(١) خبر ذلك رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، رقم الحديث (١٧٦٣).

(٢) أي: في بئر حفرت، ولم تُبن بعد، ولم تُطو. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (٧/٣).

(٣) خبر ذلك رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، رقم الحديث (١٧٦٣).

غزوة أحد

أولاً: المشهد الأول من المعركة:

لما أصيب صناديد قريش يوم بَدْر، وعظم المصاب عليهم اتفقوا على أخذ الثأر لقتلاهم، وردَّ هيبتهم بين قبائل العرب، فرصدوا لذلك أموال القافلة التي تمكن أبو سفيان من الإفلات بها قبيل معركة بدر. لتجهيز جيش لحرب المسلمين، وخرجت بقيادة أبي سفيان في منتصف شوّال من السنة الثالثة للهجرة في ثلاثة آلاف مقاتل من أبنائها ومن حلفائها من القبائل، ومعهم مائتا فرس، وسبعمائة دارع، وجاؤوا بنسائهم؛ لئلا يفروا.

وخرج النبي ﷺ لملاقاتهم في ألف مقاتل، ومعه فرسان، ومائة دارع. ولبس ﷺ درعين؛ تعليما للأمّة على مشروعية الأخذ بالأسباب، ومضى رسول الله ﷺ حتّى نزل الشِّعْب من أُحُد، وجعل ظهره وعسكره إلى جبل أحد، وقال: لا يقاتلنّ أحد منكم حتّى نأمره بالقتال، ووضع قوةً من الرماة على جبل عَيْنَيْن الذي عُرف فيما بعد بجبل الرُّماة، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه، وهم خمسون رجلا، وقال: ادفع الخيل عنّا بالنّبل، لا يأتونا من خلفنا[1]، وأمرهم بأن يلزموا مركزهم.

وبدأت المعركة واستبسل المسلمون في قتال المشركين، فأنزل الله تعالى، نصره على أهل الإيمان، وصَدَقَهم وعده، فاستطاع سبعمائة مقاتل أن يحققوا نصرا ساحقا على ثلاثة آلاف من المشركين، وأن يلحقوا بالمشركين هزيمة نكراء، ففروا من الميدان، وولّت النساء مشمّرات هوارب.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٢/٦٥ – ٦٦).

ثانياً: المشهد الثاني من المعركة:

لما رأى الرُمَاة هزيمة المشركين، والأموال التي خلفوها نزلوا من الجبل يجمعون الغنائم، وخالفوا وصيّة رسول الله ﷺ؛ ظنّا منهم أن المشركين لن يرجعوا أبدا، فلمّا رأى خالد بن الوليد أن الجبل قد خلا من الرُّماة إلا القليل، كرّ بالخيل، وتبعه عكرمة بن أبي جهل وآخرون، فحملوا على من بقي من الرّماة فقتلوهم، وثبت أميرهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه، فقاتل حتى قتل، ثم وثبوا على المسلمين من خلفهم، فهزموهم، وقتلوا فيهم قتلا ذريعا، واضطرب أمر المسلمين[1]. وصاح الشيطان عند ذلك: قُتِل محمد، فلم يشك أحد أنه حق[2]. فلما شاع الخبر بين المسلمين، خارت قواهم، ولانت عزيمتهم، وتفرّق المسلمون في كل وجه، فرجع بعضهم إلى المدينة، وانطلقت طائفة فوق الجبل إلى الصخرة، وقعد بعضهم عن القتال، فمرّ بهم أنس بن النضر رضي الله عنه فقال: ما تنتظرون؟ فقالوا: قُتِل رسول الله ﷺ، فقال: ما تصنعون في الحياة بعده؟ قوموا، فموتوا على ما مات عليه[3]. وأنزل الله تعالى، في ذلك قرآنا يُتْلَى إلى يوم القيامة، يحذر من عاقبة المخالفة والمنازعة، ويبين شؤم ارتكاب المعصية؛ قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ**

(١) خبر ذلك رواه أحمد في مسنده (٣٦٩/٤) رقم الحديث (٢٦٠٩)، وانظر: إمتاع الأسماع، للمقريزي (١٤٥/١)، وسبل الهدى والرشاد، للصالحي (١٩٦/٤).

(٢) خبر ذلك رواه أحمد في مسنده (٣٦٩/٤)، (٢٦٠٩)، والمستدرك، للحاكم (٣٢٤/٢)، (٣١٦٣)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٨٣/٢)، وزاد المعاد، لابن القيم (١٨٧/٣).

﴿ ٱلْأَخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٢).

وبعيد عن الإشاعة فقد ثبت رسول الله ﷺ في مكانه، يدافع، ويجالد جموع المشركين، وهو ينادي، (إِلَيَّ عِبَادَ الله، إِلَيَّ عباد الله)[١]، فسمع المشركون صوته، فأقبلوا عليه يريدون قتله، فرشقوه بالحجارة، فأصيبت رَباعيته، وكسر أنْفه الشريف، وسالت الدماء من وجهه الشريف؛ فجعل يمسح الدم عن وجهه، ويقول: (كيف يفلح قوم شَجُّوا نبيهم، وكسروا رَبَاعِيَتَهُ، وهو يدعوهم إلى الله؟)، فأنزل الله ﷻ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٢٨)[٢].

ونشبت حلقتان من حِلَق المغفر في وجهه ﷺ، فنزع أبو عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه إحدى الحلقتين من وجه رسول الله ﷺ فسقطت ثنيّته، ثم نزع الأخرى، فسقطت ثنيته الأخرى، فكان ساقط الثنيتين[٣]. ومع كل ذلك لم يدع عليهم ﷺ، بل طمع في إسلامهم، ودعا لهم، فقال: (اللهم اغفر لِقَوْمِي؛ فإنّهم لا يعلمون)[٤].

ثالثاً: من روائع حب الصحابة رضي الله عنهم وفدائهم الرسول ﷺ:

بقي الرسول ﷺ في تسعة أو اثني عشر من أصحابه، يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «أُفْرِدَ رسول الله ﷺ يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما

(١) انظر: تفسير جامع البيان للطبري (١٤٨/٦).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: غزوة أحد، رقم الحديث (١٧٩١).

(٣) انظر: الفصول في السيرة، لابن كثير ص (١٤٨).

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب الأدعية، ذكر ما يجب على المرء الدعاء على أعدائه بما فيه ترك حظ نفسه، رقم الحديث (٩٧٣)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان (٢٩٨/٢).

رَهِقُوهُ[1]، قال: (من يردّهم عَنَّا، وهو رفيقي في الجنة)، فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قُتِلَ، ثم رَهِقُوهُ أيضا، فقال: (من يردّهم عَنَّا، وهو رفيقي في الجنة)، فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قُتِلَ، فلم يزل كذلك حتى قُتِلَ السبعة»[2]. وبقي رسول الله ﷺ وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، فقال رسول الله ﷺ: (مَن للقوم؟) فقال طلحة رضي الله عنه: أنا، فقاتل طلحة قتال الْأَحَدَ عَشَرَ، حتى ضُرِبَتْ يدُه، فَقُطِعَتْ أصابعه، فقال: حَسٍّ[3]، فقال رسول الله ﷺ: (لو قلتَ بسم الله لَرَفَعَتْكَ الملائكة والناس ينظرون)[4]. وجعل طلحة رضي الله عنه نفسه وقاية لرسول الله ﷺ حتى جُرح في بضع وسبعين موضعا[5]؛ وشُلّت يده، يقول قيس بن أبي حازم رضي الله عنه: «رأيتُ يَدَ طلحة التي وَقَى بها النبي ﷺ قد شَلَّتْ[6]»[7].

وكان ممن أبلَى بلاءً حسناً في ذلك اليوم أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه، حيث كان يرد السهام عن رسول الله ﷺ ويتلقفها في صدره ونحره وظهره، فإذا أشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، قال أبو طلحة رضي الله عنه: بأبي أنتَ وأمي، لا تُشْرِفْ، يصيبك سهم

(١) رَهِقُوهُ: بكسر الهاء، أي: غَشوهُ وَقَرُبُوا منه. انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي (١٤٧/١٢).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، رقم الحديث (١٧٨٩).

(٣) حَس: بفتح الحاء، كلمة تُقال عند التوجع. انظر: حاشية السندي على النسائي (٣٠/٦).

(٤) رواه النسائي في سننه، كتاب الجهاد، ما يقول من يطعنه العدو، رقم الحديث، (٢١٤٩)، والحديث حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٤/٥).

(٥) انظر: دلائل النبوة، للبيهقي (٢٦٤/٣)، والبداية والنهاية، لابن كثير (٣٩٧/٥).

(٦) شَلَّت: يبست وبطل عملها. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (١٤٠/١).

(٧) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب: ذكر طلحة بن عبيد الله، رقم الحديث (٣٧٢٤).

من سهام القوم، نَحْرِي دون نَحْرِكَ[1].

رابعاً: الاستبسال في صدِّ المشركين:

استمر خالد بن الوليد ومن معه من المشركين في الهجوم، فقاومهم المسلمون بقوة، وصدُّوهم، فلما رأى المشركون استماتة المسلمين في القتال وجلادتهم يئسوا من إنهاء المعركة بنصر حاسم، وخافوا أن تكون الجولة الثالثة للمسلمين كما كانت لهم الأولى، وينقلب الأمر، فكَفُّوا عن القتال، وانصرفوا، ولم يأخذوا أسيرا ولا غنيمة.

والحقُّ أن فشل المشركين في القضاء على المسلمين بعد أن أحاطوا بهم من كل جانب، مع كثرة عَددهم وعُدَدهم، يدل على ضعفهم وهزيمتهم. ونجاح المسلمين في الخروج من تطويق المشركين وردّ عدوانهم مع قلّة عَددهم وعُدَدهم يُعدّ نصرا لهم.

واستشهد يومئذ من المسلمين سبعون صحابيًا[2]، وقامت هند بنت عتبة وكانت من المشركين، والنسوة اللاتي معها يُمَثِّلْنَ بالقتلى، يَجْدَعْنَ الآذان والأنوف، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأنوفهم خلاخل، وقلائد، وقد أعطت قلائدها الحقيقية وأقراطها وحشي بن حرب؛ جزاء له على قتله حمزة رضي الله عنه[3].

وأمر النبي ﷺ بدفن الشهداء بدمائهم، يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «كان النبي ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول: (أَيُّهُمْ أكثر

---

(١) خبر ذلك متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: ﴿ **إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا** ﴾، رقم الحديث (٤٠٦٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: غزوة النساء مع الرجال، رقم الحديث (١٨١١).

(٢) خبر ذلك رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، رقم الحديث (٣٠٣٩)، وانظر: الفصول في السيرة، لابن كثير، ص (١٥٠).

(٣) سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٩١/٢)، والبداية والنهاية، لابن كثير (٤١٩/٥).

أَخْذًا للقرآن)، فإذا أُشِيرَ له إلى أحدهما قَدَّمَهُ في اللَّحد، وقال: (أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة)، وأمر بدفنهم في دمائهم، ولم يغسلوا، ولم يُصلّ عليهم»[1].

***

الدروس المستفادة

- النصر على الأعداء لا يكون إلا من عند الله، وليس بكثرة العَدد والعُدد، قال تعالى: ﴿ **وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ** ﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ١٢٦)، فالعبد يأخذ بالأسباب، ولا يتكل عليها.

- أهمية التضرع واللجوء إلى الله تعالى، والإقبال عليه، والإكثار من دعائه، وخاصّة في الشدائد.

- في استشارة الرسول ﷺ لأصحابه في معاملة الأسرى وغير ذلك من الأمور دليل على أهمية الشورى في الإسلام، وأثرها في استلهام الرأي السديد.

- ما نزل بلاء إلا بذنب؛ قال تعالى: ﴿ **وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ** ﴾ (الشورى: ٣٠)، وما حصل للمسلمين في غزوة أُحد بسبب ترك الرُّماة لأماكنهم، ومخالفتهم لأمر الرسول ﷺ أكبر شاهد على ذلك.

- شؤم المعصية لا يقتصر على من قارفها، بل قد يتعدَّى إلى مَن حوله، فيُصيب الصالح والطالح جميعًا في الدنيا.

- الشدائد تكشف حقائق النفوس، وتُميّز الطيب من الخبيث، والصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، فَقد مَيّزَ الله المؤمنين يومَ أُحد مِنَ المنافقين.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب: الصلاة على الشهيد، رقم الحديث (١٣٤٣).

- خطر النفاق والمنافقين على الإسلام والمسلمين، وهو أشد من خطر الكفار المجاهرين للمسلمين بالعداء؛ لأن المنافق يتظاهر بالإسلام؛ لتمزيق كلمة المسلمين.

- أهمية التثبت في نقل الأخبار، والحذر من الإشاعات التي تهدّ كيان الأُمّة، وتفرّق الكلمة، وتزعزع الأمن والاستقرار، وتكون سببا في تثبيط الهمم.

- أهمية طاعة ولي أمر المسلمين بالمعروف، والتحذير من مخالفته إذ كانت مخالفة ولي الأمر في غزوة أُحد سببا لتحول النصر إلى الهزيمة.

***

أخي الطالب/أختي الطالبة:

للتوسع في موضوعات هذه الوحدة ينظر إلى:

١ – السيرة النبوية لابن هشام.

٢ – مختصر السيرة النبوية، لمحمد بن عبد الوهاب.

٣ – السيرة النبوية من مصادرها الأصلية، د. مهدي رزق الله.

***

الوحدة الثامنة

غزوات: بني النضير، والخندق، وبني قريظة

أخي الطالب/ أختي الطالبة:

يتوقع – بعد دراستك لهذه الوحدة – أن تكون قادرا على:

١ – معرفة أسباب غزوة بني النضير، والخندق، وبني قريظة، ونتائج كل منها.

٢ – الوقوف على بعض دلائل النبوة من غزواته ﷺ.

٣ – استشعار تأييد الله للمؤمنين، وعظيم نصره بعد تفاقم الشدائد.

غزوة بني النضير

أولاً: مَنْ هم بني النَّضِيْر؟

النَّضِيْر: بفتح النون، وكسر الضاد، ثم ياء ساكنة، اسم قبيلة من اليهود الذين كانوا بالمدينة وكانوا هم وقُريظة نزولا بظاهر المدينة في حدائق وآطام لهم، ومنازلهم التي غزاهم النبي، ﷺ، فيها تُسمّى وادي بطحان[1]، وموضع آخر يقال له البويرة[2].

ثانياً: سبب الغزوة:

كان سبب الغزوة أن رسول الله ﷺ خرج إلى بني النّضير؛ ليستعين بهم في دية الرجلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحِلْف، فوعدوا بخير، ولكنّهم أضمروا الغدْر والاغتيال، وقالوا: يا أبا القاسم، اجلس حتى تُطْعَم، وترجع بحاجتك، فقعد رسول الله ﷺ مع نفر من أصحابه إلى جدار من جُدرهم، فناجى بعضهم بعضا: مَن رجل يصعد على ظهر البيت، فيلقي على محمد ﷺ صخرة فيقتله، فيريحنا منه؟ فإنا لن نجده أقرب منه الآن، فأوحى الله ﷻ إلى رسول الله ﷺ بما ائتمروا به، فنهض ﷺ من بين أصحابه، ورجع إلى المدينة. فلما استبطأه أصحابه لحقوه بالمدينة.

---

(١) بُطْحَان: وهو أحد أودية المدينة الثلاثة، وهي العقيق وبطحان وقناة. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي: (١/٤٤٦).

(٢) البُويرة: تصغير البئر التي يستقى منها الماء، وفي هذا الموضوع من ديار بني النضير، قال حسان بن ثابت في ذلك: لهان، على سراة بني لؤيّ، ... حريق بالبويرة مستطير. انظرك معجم البلدان لياقوت الحموي: (١/٥١٢)، و(٥/٢٩٠).

ثالثاً: موقف الرسول ﷺ من غدر بني النضير:

لما استبان لرسول لله ﷺ ما كان من غَدْر اليهود أرسل إليهم محمد بن مسلمة أن اخرجوا من بلدي فلا تساكنوني بها، وقد هممتم بما هممتم به من الغَدْر، ثم أمهلهم ﷺ عشرة أيام للخروج، وتجهز بنو النضير للخروج في هذا الإنذار، ولكن عبد الله بن أبيٍّ رأس المنافقين أرسل إليهم ينهاهم عن الخروج، ويعدهم بإرسال ألفين من جماعته يدافعون عنهم، فعدلوا عن النزوح، وتحصّنوا في حصونهم، وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك، فخرج إليهم ﷺ في أصحابه يحمل لواءه علي بن أبي طالب رضي الله عنه[1] وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة أربع من الهجرة[2]، فلما رأى اليهود رسول الله ﷺ وأصحابه أخذوا يرمونهم بالنبل والحجارة، ولم يصل إليهم المدد الذي وعدهم به رأس المنافقين، فتحصنوا منهم في الحصون، فحاصرهم المسلمون ستّ ليال، وكانت نخيلهم وبساتينهم عونا لهم في ذلك، فأمر رسول الله ﷺ بقطعها وتحريقها، فقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم، ويكفّ عن دمائهم على أنّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فقبل منهم ذلك، فلما أرادوا الخروج أخذوا كل شيء يستطيعونه، وهدموا بيوتهم بأيديهم؛ ليحملوا منها ما أمكن من العتبة ونحوها؛ ولكيلا يستفيد منها المسلمون، ونزل أشرافهم في خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، ولم يُسْلم منهم إلا اثنان[3].

---

(١) انظر: السيرة النبوية: دروس وعبر، مصطفى السباعي، ص (٨٨).

(٢) هذا الذي عليه عامة أهل المغازي والسير؛ ورجحه ابن كثير في البداية والنهاية (٣٣٥/٥)، وقال ابن القيم في زاد المعاد (٢٢٣/٣): «هذا هو الصحيح عند أهل المغازي والسير».

(٣) انظر: الدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر ص (١٦٤ – ١٦٥)، والفصول، لابن كثير=

رابعاً: ما نزل في غزوة بني النضير من القرآن:

وفي هذه الغزوة أنزل الله ﷻ، سورة الحشر، ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ (الحشر: ٢ – ٤). وقد كان عبد الله بن عباس ﷺ يسمي سورة الحشر: سورة بني النضير[1].

***

غزوة الخندق

أولاً: موقف قوى الشرّ من المسلمين قبل غزوة الخندق:

كانت قريش تود لو أُتيحت لها الفرصة للقضاء على النبي ﷺ والإسلام، ولا سيما بعد ما أصابها من نكسة بسبب نكوصها عن الخروج في بدر الآخرة، وكان الأعراب الذين نال منهم النبي وصحابته موتورين ويتحينون الفرصة للانتقام. وكان اليهود من بني قُينقاع وبني النضير الذين أجلاهم النبي عن المدينة مغيظين محنقين، ويسعون ما وسعتهم الحيلة في القضاء على هؤلاء الذين أجلوهم عن ديارهم، ونسوا عفو النبي ﷺ عنهم، وكان يمكنه أن يُبيدَهم بدل إجلائهم، فلا تعجب إذا كانت

=ص (١٥٧).

(١) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٤/٢٥٣)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/٥٦).

قوى الشرّ الثلاث هذه قد تعاونت قصد القضاء على الإسلام والمسلمين[1].

ثانياً: تأليب اليهود أعداء الإسلام على محاربة المسلمين:

أخذ يهود بني النضير يعدّون العُدّة لأخذ الثأر من المسلمين، وأدركوا أنه ليس بإمكانهم، ولا بإمكان قريش وحدها، أن تفعل ذلك، فقرّروا أن يجمعوا الجموع للقضاء على الإسلام والمسلمين في عُقْر دارهم، فخرج وفْدٌ منهم إلى مكة، فيهم سلام بن أبي الحُقيق، وحُيَيّ بن أخطب، فحرضوا قريشًا على حرب المسلمين، ووعدوهم أن يقاتلوا معهم، فأجابتهم قريش، ثم خرجوا إلى غَطفَان، فاستجابوا لهم، ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك، فاستجابت لهم كل القبائل المعادية للمسلمين، واجتمع جيش قوامُهُ نحو عشرة آلاف مقاتل.

والغريب في فعل اليهود أن أحبار التوراة أكّدوا لِعَبَدةِ الأوثان في مكّة أنّ قتال محمد ﷺ حق، واستئصاله أرضى لله! لأنّ دِين قريش أفضل من دِينه! وتقاليد الجاهلية أفضل من تعاليم القرآن! وسرّت قريش بما سمعت، وزادها إصرارا على العدوان، فواعدت اليهود أن تكون معها في الزحف على المدينة[2].

ثالثاً: موقف المسلمين من جموع المتحزبين:

لما سمع ﷺ بخروج المتحزبين ضد المسلمين، استشار أصحابه، فأشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر خندق من الجهة الشمالية للمدينة؛ إذ هي الجهة الوحيدة المكشوفة أمام الأعداء. فأمر رسول الله ﷺ بحفره، وقسّمه بين المهاجرين والأنصار، فاجتهدوا في حَفْره، مع شدة البَرْد والجوع، فقد كانوا يلبثون ثلاثة أيام لا يذوقون

(١) انظر: السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، لمحمد محمد أبو شهبة (٢/٢٧٥).

(٢) انظر: فقه السيرة للغزالي، ص (٢٩٧).

طعاماً، وكان ﷺ يدعو لهم، ويحمّسهم، يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يَحْفِرُونَ في غَدَاةٍ باردة، فلما رأى ما بهم من النَّصَبِ والجوع، قال:

(اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ ❖ فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَهْ)

فقالوا مُجِيبينَ له:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا ❖ عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا»[1]

وكان ﷺ يشاركهم في العمل، ويُكابِد معهم النّصب والجوع.

وقد تمكن المسلمون من حفر الخندق في ستة أيام فقط[2]، وبلغ طوله خمسة آلاف ذراع[3].

رابعاً: آيات النبوة أثناء حفر الخندق:

وكان النبي ﷺ يقوم بما يعجز عنه الآخرون، فحطَّم صخرة عظيمة حالت دون إتمام الحَفْر، والحَجَرُ مشدود على بطنه من شدّة الجوع، يقول جابر رضي الله عنه: «إنّا يوم الخندق نَحْفِرُ، فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شديدة، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كُدْيَةٌ[4] عَرَضَتْ في الخندق، فقال: (أنا نازل). ثم قام، وبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بحجَر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذَوَاقًا، فأخذ النبي ﷺ المِعْوَلَ فضرب، فعاد كَثِيبًا أَهْيَلَ»[5]، أي

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: الصبر عند القتال، رقم الحديث (٢٨٣٤).

(٢) انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد (٦٧/٢)، وسبل الهدى والرشاد، للصالحي (٣٦٧/٤).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة، لأكرم ضياء العمري، ص (٤٢١). أي أقل من (٣) كيلو، نحو (٢٧٢٥) مترا.

(٤) كُدْيَة: قطعة غليظة صلبة لا تعمل فيها الفأس. انظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير (١٥٦/٤).

(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: غزوة الخندق، رقم الحديث (٤١٠١).

صارت الصخرة الصلبة رملاً لينًا سائلاً. وزاد البَراء ﷺ في روايته: فأخذ الْمِعْوَلَ فقال: (بسم الله)، فضرب ضربةً، فَكَسَرَ ثُلُثَ الحجر، وقال: (الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح الشام، والله إِنِّي لَأُبْصِرُ قصورها الحُمر من مكاني هذا). ثم قال: (بسم الله) وضرب أخرى، فكسر ثلثَ الحجر، فقال: (الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح فارس، والله إِنِّي لَأُبْصِرُ المدائن، وأُبْصِرُ قصرها الأبيض من مكاني هذا)، ثم قال: (بسم الله) وضرب ضربة أخرى، فقلع بَقِيَّةَ الحجر، فقال: (الله أكبر، أُعْطِيتُ مفاتيح اليمن، والله إِنِّي لَأُبْصِرُ أبواب صنعاء من مكاني هذا)[1].

خامساً: بين الابتلاء والمن بالنصر:

أَمَر النبي ﷺ بوضع النساء والأطفال في أحد الحصون، وخرج في ثلاثة آلاف من المسلمين، فجعل ظهره إلى جبل سَلْعٍ، والخندق أمامه. وأقبلت قريش وغَطَفان ومن تابعهم، حتّى نزلوا أمام المدينة، في عشرة آلاف، وراعهم ما رأوا من أمر الخندق؛ إذ لا عهد للعرب بمثله.

ومضى قريبٌ من شهر دون حرب بين الفريقين سوى الرمي بالنبل والحجارة من وراءِ الخندق، والمشركون يحاولون اقتحامه، ولكن كلما حاولوا أمطرهم المسلمون بوابل من السهام فردوهم.

وكان بين المسلمين وبين بني قُرَيْظة عهدٌ، فحملهم حُيَيّ بن أخطب سيّد بني النضير على نقض العهد؛ ليضربوا المسلمين من الخلف، حيث كانت مساكنهم جنوب المدينة، فنقضوا العهد، وأخذ المشركون يستعدون لاقتحام المدينة من جهة بني قريظة، والقضاء على المسلمين، فعظُم عند ذلك البلاء على المسلمين، واشتدّ الخوف،

(١) رواه أحمد في مسنده (٣٠/٦٢٥)، رقم الحديث (١٨٦٩٤)، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/٣٩٧).

وأَصبحوا بين نار من فوقهم ونار من أَسفل منهم، وانسحب المنافقون معتذرين بأَن بيوتهم مكشوفة للأعداء، فأظهر الله حقيقتهم بقوله: ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (الأحزاب: ١٣).

ولما طال أَمَدُ الحصار، واشتد بالمسلمين الكرب والبلاء، وبلَغَت الحال كما وصف الله في القرآن: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (الأحزاب: ١٠ – ١١) – ابتهل الرسول ﷺ إلى ربّه، ودعاه بقوله: (اللهم مُنْزِلَ الكتاب، سَرِيعَ الحِسَابِ، اللهم اهْزِمِ الأَحْزَابَ، اللهم اهزمهم وزلزلهم)[1]. فاستجاب الله ﷻ دعاء نبيه ﷺ عليهم، وأرسل على أعدائه ريحًا باردة في ليلة مظلمة شاتية، كفأت قُدُورهم، وأطفأَت نيرانهم، وقَلَعت خيامهم، وأرسل الملائكة، فزلزلتهم، وألقت في قلوبهم الرعب والخوف، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ ﴾ (الأحزاب: ٩)، فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح، وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، ؛يأتيه بخبرهم، فوجدهم في خوف وذُعْر، وقد تهيؤوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره برحيل القوم[2]، فأصبح رسول

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: الدعاء على المشركين بالهزيمة، رقم الحديث (٢٩٣٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو، رقم الحديث (١٧٤٢).

(٢) خبر قصة حذيفة مفصلة رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: غزوة الأحزاب، رقم الحديث (١٧٨٨).

الله ﷺ، وقد رد الله عدوه بغيظه لم ينالوا خيرا، وكفاه الله قتالهم، ووقعت هذه الغزوة في شوال من السنة الخامسة الهجرية[1]. واستشهد من المسلمين يوم الخندق ستة، وقُتِل من المشركين ثلاثة نفر[2].

***

غزوة بني قريظة

أولاً: سبب الغزوة:

وقعت غزوة بني قُرَيْظة في السنة الخامسة للهجرة عقب غزوة الأحزاب، وذلك أن رسول الله ﷺ بعد أن رأى ما انطوت عليه نفوس يهود بني قُرَيْظة من اللؤم والغدْر والتحزُّب مع قريش وحلفائها، وبعد أن أعلنت له إبَّان اشتداد معركة الأحزاب أنها نقضت عهدها معه، وكانت وهي تُساكن الرسول ﷺ في المدينة تهم بشر عظيم قد يقضي على المسلمين جميعا لولا انتهاء معركة الأحزاب بمثل ما انتهت إليه، رأى رسول الله ﷺ أن يؤدب هؤلاء الخائنين الغادرين، ويطهر منهم المدينة مقر جهاده ودعوته حتى لا تواتيهم الظروف مرة أخرى، فينقضّوا على جيرانهم المسلمين ويُبيدُوهم كما هي طبيعة الغدر اليهودي اللئيم[3].

وقد صحّ في السنّة أنه لما رجع رسول الله ﷺ من الخندق وضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل عليه السلام وهو يَنْفُضُ رأسه من الغبار، فقال: «قد وَضَعْتَ

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (٣٩٣/٧)، والبداية والنهاية، لابن كثير (٩/٦).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٢٥٢/٢ – ٢٥٣)، والبداية والنهاية، لابن كثير (٦٩/٦).

(٣) السيرة النبوية: درس وعبر، مصطفى السباعي، ص (٩١).

السلاح؟، والله ما وَضَعْتُهُ، اخْرُجْ إليهم، قال النبي ﷺ: «فَأَيْنَ؟»، فأشار إلى بني قُرَيْظة[1]. وذلك ليطهّر المدينة من قوم تربّوا على الغدْر والخيانة، ولم تعد تنفع معهم العهود والمواثيق، فنهض ﷺ من وقته إليهم، ونادى في الناس: (لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العصر إلا في بني قريظة)[2]، فراح المسلمون أرسالاً، وتبعهم ﷺ، ولواؤه بيد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وخليفته على المدينة عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه.

ثانياً: الجزاء من جنس العمل:

لما رأى بنو قريظة جيش المسلمين تحصّنوا بحصونهم، فحاصرهم رسول اللَّه ﷺ خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف اللَّه في قلوبهم الرُّعْب، وضاق بهم الأمر فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فحكّم فيهم سعد بن معاذ سيد الأوس، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس، فقال سعد رضي الله عنه: «فَإِنِّي أَحْكُمُ فيهم: أن تُقْتَلَ المُقَاتِلَةُ، وأن تُسْبَى النساء والذرية، وأن تُقْسَمَ أموالهم»[3]. فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حَكَمْتَ فيهم بِحُكْمِ الله عز وجل»[4]، وكان جزاء بني قريظة من جنس

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، رقم الحديث (٤١٢٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد، رقم الحديث (١٧٦٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبا وإيماء، (٩٤٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: المبادرة بالغزو، رقم الحديث (١٧٧٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل، رقم الحديث (٣٠٤٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد، رقم الحديث (١٧٦٩).

(٤) خبر ذلك رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب: مناقب سعد بن معاذ، رقم الحديث (٣٨٠٤).

عملهم حين عرّضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل، وأموالهم للنهب، ونساءهم وذراريهم للسبي، فكان أن عوقبوا بذلك جزاءً وفاقاً[1].

* * *

الدروس المستفادة

- جواز القَطْع والحَرْق في أرض العدو للمصالح الحربية، وأنّ ذلك ليس من الفساد في الأرض[2].

- مشروعية الاستفادة مما لدى الأمم الأخرى من صناعة وتقنية وتقدُّم علمي، فقد أخذا النبي ﷺ فكرة الخندق عن الفرس.

- في حفر الخندق دلالة على أنه لا بد من الأخذ بالأسباب، والإعداد المادي للجهاد بمختلف الأسلحة المتطورة والمناسبة للعصر لمواجهة العدو.

- الكُفْر مِلَّة واحدة في كل زمان ومكان في مواجهة الإسلام؛ ويظهر ذلك جليا من تَحزُّب المشركين من شتى القبائل واليهود لحرب المسلمين.

- المؤمن لا ييأس عند المحنة، ولا يفقد الثقة بالله مهما اشتدّ الكرب، فالنبي ﷺ في غزوة الأحزاب كان يبشّر أصحابه بانتصار الإسلام، رغم ما هم فيه من الشدة.

- جواز تحكيم أهل العلم والفضل في أمور المسلمين وفي مُهِمَّاتِهِم العظام، كما حَكّم رسول الله ﷺ سعد بن معاذ رضي الله عنه في أمر بني قُرَيْظة، وقَبِلَ حُكْمِه فيهم[3].

* * *

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة، لأكرم ضياء العمري (١/٣١٧).

(٢) انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري، ص(٢٣٧).

(٣) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (١٢/٩٢).

أخي الطالب/أختي الطالبة:

للتوسع في موضوعات هذه الوحدة ينظر إلى:

١ – السيرة النبوية لابن هشام رحمه الله.

٢ – السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري.

٣ – الرحيق المختوم للمباركفوري.

* * *

الوحدة التاسعة

من صلح الحديبية إلى مراسلة الملوك والأمراء

أخي الطالب/ أختي الطالبة:

يتوقع – بعد دراستك لهذه الوحدة – أن تكون قادرا على:

١ – أن يدر ك الطالب أحداث صلح الحديبية، وما نَصّتْ عليه وثيقة الصلح.

٢ – أن يذكر الطالب ما تَرتَّب على صلح الحديبية من الفوائد.

٣ – أن يتعرّف الطالب على ما قام به رسول الله ﷺ لنشر الدعوة خارج جزيرة العرب.

صلح الحديبية

أولاً: الخروج إلى الحديبية:

رأى النبي ﷺ في المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين، ويحلقون رؤوسهم ويُقصّرون، فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا[1]، فأمر الناس أن يتجهزوا للخروج إلى مكة معتمرين، فخرج في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، معه المهاجرون والأنصار، يحدوهم الشوق إلى رؤية بيت الله الحرام، بعد أن حُرموا من ذلك سنوات عديدة، وكان عددهم نحوا من ألف وخمسمائة، وساق ﷺ الهَدْي؛ تعظيما للبيت وتكريما، وأشعره، فجرحه في أحد جانبي السنام، وأزال الشعر منه؛ ليعلم الناس أنها مُهْدَاة إلى البيت، فلا يتعرّضوا لها، وأحرم بالعمرة من ذي الحليفة، فلبّى وسار أصحابه يُلبّون، ولم يحملوا معهم إلا سلاح المسافر، وهو السيوف في أغمادها.

ولما وصل رسول الله ﷺ قريبا من عسفان جاء الخبر إلى رسول الله ﷺ أن قريشاً قد جمعوا الجموع، وخرجوا يريدون أن يقاتلوه، ويصدوه عن البيت الحرام.

فاستشار النبي ﷺ أصحابه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت، لا تريد قَتْلَ أَحَدٍ، وَلاَ حَرْبَ أَحَدٍ، فَتَوَجَّهْ له، فمن صَدَّنَا عنه قاتلناه، قال: (امْضُوا على اسم الله)[2].

---

(١) انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي (٣٢٢/٧)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣٥٦/٧).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: غزوة الحديبية، رقم الحديث (٤١٧٨).

فسار النبي ﷺ حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ لأصحابه: (إن خالد بن الوليد بِالْغَمِيمِ في خيلٍ لقريش طَلِيعَةٌ – أي: مقدمة الجيش – فخذوا ذات اليمين)[1]. فخالفه ﷺ في الطريق؛ تجنبا للقتال، وسلك طريقاً وعرة عبر ثَنِيَّةَ الْمُرَارِ، وقال لأصحابه: (مَن يصعد الثَّنِيَّةَ[2]، ثَنِيَّةَ الْمُرَارِ[3]؛ فإنه يُحَطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل)، فكان أولَ مَن صعدها خيل بني الخزرج، ثم تَتَامَّ الناس[4].

فلمّا علم خالد بما فعل المسلمون رجع إلى قريش، وأخبرهم الخبر.

ثانياً: بيعة الرضوان:

وأَحبَّ رسول الله ﷺ أن يرسل إلى قريش مبعوثا خاصا يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء معتمرا وزائرا للبيت العتيق، مُعَظِّمًا لحرمته، فأرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه فلقيه ابن عمّه أبان بن سعيد بن العاص، فأجاره، وحمله على دابته، حتى بلّغَ رسالة رسول الله ﷺ، فقالوا لعثمان رضي الله عنه: إن شئتَ أن تطوف بالبيت، فَطُفْ به. فقال عثمان رضي الله عنه: ما كنتُ لِأَفْعَلَ حتى يطوف به رسول الله ﷺ. فاحتبسته قريش عندها، ولم يأذنوا لرسول الله ﷺ، وقالوا: إن محمدا لا يدخلها علينا عَنْوَةً أبدا، لا تَتَحَدَّثُ العرب عنّا بذلك. وتأخر عثمان رضي الله عنه في مكة حتى أشيع أنه قد قُتِل[5]، فدعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى البيعة، فبايعوه تحت الشجرة بيعة الرضوان على الموت

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد، رقم الحديث (٢٧٣١).

(٢) الثَّنِيَّةُ: هي الطريق العالي في الجبل. انظر: مرقاة المفاتيح، للملا علي القاري (٤٠١٦/٩).

(٣) المُرار: بضم الميم على المشهور: موضع بين مكة والحديبية من طريق المدينة. انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للهروي (٤٠١٦/٩).

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين، باب: براءة حرم النبي ﷺ، رقم الحديث (٢٧٨٠).

(٥) خبر ذلك رواه أحمد في مسنده (٢١٦/٣١) رقم الحديث (١٨٩١٠)، قال المحققون: «إسناده حسن».

وعلى أن لا يفروا، فبايعه المسلمون كلهم «إلا الجد بن قيس اخْتَبَأَ تحت بَطن بعير»[1]، وكان منافقا، ثم أخذ رسول الله ﷺ بيده اليمنى، فقال: (هذه يَدُ عثمان). فضرب بها على يده، فقال: (هذه لِعُثْمَان)[2]. ولما تَمَّت البيعة رجع عثمان رضي الله عنه إلى المسلمين، وتبين بطلان الخبر. وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ **لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ** ﴾ (الفتح: ١٨)، وقال فيهم الرسول ﷺ: (لا يدخلُ النار أَحَدٌ مِمَّنْ بايع تحت الشجرة)[3].

ثالثاً: انبهار المشركين بحب الصحابة رضي الله عنهم للرسول ﷺ وتعظيمهم له:

ثم تراسل المشركون معه ﷺ حتى جاء عروة بن مسعود الثقفيّ، فتفاوض مع رسول الله ﷺ، وجعل يرمق أصحاب النبي ﷺ ويتعرف أحوالهم، ويتعجّب منهم، فلما رجع إلى قومه قال لهم: «أَيْ قوم، والله لقد وَفَدْتُ على الملوك، ووَفَدْتُ على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أصحابه ما يُعَظِّمُ أصحاب محمد ﷺ محمدا، والله إن تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ في كَفِّ رجل منهم، فَدَلَكَ بها وجهه وجلده، وإذا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أمره، وإذا توضأ كادُوا يَقْتَتِلُونَ على وَضُوئِهِ، وإذا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّونَ إليه النظر تعظيما له، وإنه قد عَرَضَ عليكم خُطَّةَ رُشد»[4].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٣/٤٠٨)، (١٥٢٥٩)، وحسنه الأرنؤوط في تعليقه عليه.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب: مناقب عثمان، رقم الحديث (٣٦٩٩).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٢٣/٩٣)، (١٤٧٧٨)، وحسنه، وصححه الألباني في التعليقات الحسان (٧/١٦٧).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد، رقم الحديث (٢٧٣١).

رابعاً: إبرام الصلح وشروطه:

ثم أرسلت قريش سهيل بن عمرو، فلما رآه النّبيّ ﷺ قال متفائلا: (هذا سُهَيْلٌ، قد سَهَّلَ الله لكم أمركم)[1]. فلما جاء سهيل قال: هَاتِ اكْتُبْ بيننا وبينكم كتابا، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم»، قال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن «اكتب بِاسْمِكَ اللهم، كما كنتَ تكتب»، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: (اكتب بِاسْمِكَ اللهم)، ثم قال: (هذا ما قاضَى عليه محمد رسول الله)، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله، ما صَدَدْنَاكَ عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: (والله، إني لرسول الله، وإن كَذَّبْتُمُونِي، اكتب[2]: باسمك اللهم، هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو، وكتبت شروط الصلح بين الطرفين، وهي[3]:

١ – أن يكف الفريقان عن الحرب عشر سنين، يأمن فيهن الناس.

٢ – أن مَن جاء إلى المسلمين مِن قريش بغير إذن وليه يردونه، ومن أتى قريشًا من المسلمين لا تُلزم قريش برده.

٣ – أن يرجع المسلمون هذا العام دون أن يدخلوا مكة، على أن يأتوها معتمرين

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة، رقم الحديث (٢٧٣١) ورواه ابن حبان في صحيحه، كتاب السير، باب الموادعة والمهادنة، ذكر ما يستحب للإمام استعمال المهادنة بينه وبين أعداء الله، (٤٨٧٢)، واللفظ له.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، الحديث السابق، (٢٧٣١).

(٣) خبر ذلك رواه أحمد في مسنده (٢١٨/٣١)، (١٨٩١٠)، بسند حسنه الأرنؤوط في تحقيقه للمسند، وانظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٣١٧/٢)، وزاد المعاد، لابن القيم (٢٦٦/٣).

العام القادم، ليس معهم إلا سلاح المسافر، فيقيمون بها ثلاثة أيام.

٤ – أن من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها دخل فيه.

وكتب وثيقة الصلح علي بن أبي طالب ﷺ[١]. فأقر الله سبحانه، ذلك كله إلا ما استثنى من المهاجرات المؤمنات من النساء، فإنه نهاهم عن ردهن إلى الكفار، وحرمهن على الكفار يومئذ[٢].

وكان المسلمون يومئذ لا يشكّون في أنهم سيدخلون مكة، ويطوفون بالبيت العتيق، «فلما رَأَوْا مَا رَأَوْا من الصلح والرُّجوع، وما تَحَمَّلَ رسول الله ﷺ على نفسه، دخل الناس من ذلك أمرٌ عظيم حتى كادوا أن يَهْلَكُوا»[٣]، من شدة غيظهم وألمهم، واشتدّ على الصحابة ردّ المسلمين الفارين من قريش إليها، فقالوا: يا رسول الله، نَكْتُبُ هذا؟ قال: (نعم، إنه مَن ذهب مِنَّا إليهم، فَأَبْعَدَهُ الله، ومَن جاءنا منهم سيجعل الله له فَرَجًا وَمَخْرَجًا)[٤]. ولم يتحمّل ذلك عمر ﷺ فراجع الرسول ﷺ فقال: «فأتيت نبي الله ﷺ فقلتُ: ألستَ نبي الله حقا؟ قال: (بَلى)، قلتُ: ألسنا على الحق، وعَدُوُّنَا على الباطل؟ قال: (بَلى)، قلتُ: فَلِمَ نُعطِي الدَّنِيَّةَ[٥] في ديننا،

(١) خبر ذلك رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية والموادعة، باب: المصالحة على ثلاثة أيام، رقم الحديث (٣١٨٤). وانظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٣١٩/٢).

(٢) الفصول في السيرة، لابن كثير ص (١٨٦).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٢١٩/٣١)، (١٨٩١٠)، بسند حسَّنه الأرنؤوط في تحقيقه للمسند.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية، رقم الحديث (١٧٨٤).

(٥) الدَّنِيَّةَ: النَّقِيصَةُ والخصلة الخسيسة. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني (١٤/١٤)، والمقصود بالدنيَّة هنا: المصالحة بهذه الشروط التي تدل على العجز والضعف.

إذًا؟[1]، ونرجع، وَلَمَّا يَحْكُم الله بيننا وبينهم، فقال: (يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يُضَيِّعَنِي الله أبدا)، فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر، فَأَقْرَأَهُ إِيَّاهُ، فقال: يا رسول الله، أَوَ فَتْحٌ هُو؟ قال: (نعم)، فطابت نفسه ورجع»[2].

خامساً: بَرَكَة صلح الحديبية، وما ترتَّب عليه من الفوائد:

حقا لقد كان هذا الصلح مغنمًا للمسلمين، ونصرا عظيما، ومبدأ عهد جديد، حتى قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية»[3]؛ إذ تهيأ بسببه لرسول الله ﷺ أن يراسل الملوك، ويدعوهم إلى الإسلام، وأن يدعو القبائل التي كانت تخشى قريشا، فأصبحت تُقبل على الإسلام، وأتاح هذا الصلح الفرصة للمشركين أن يختلطوا بالمسلمين في ظلّ الأمن والسلام، ويتعرفوا على الإسلام من كثب، فخالطت بشاشة الإسلام قلوبهم، ودخل في دين الله أضعاف ما دخل من قبل؛ منهم خالد بن الوليد رضي الله عنه، وعمرو بن العاص رضي الله عنه، وحارس الكعبة عثمان بن طلحة رضي الله عنه. ولا أدل على ذلك – كما قال ابن هشام – مِن أنّ رسول الله ﷺ قد خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر رضي الله عنه، ثمّ خرج في عام فتح مكّة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[4].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد، رقم الحديث (٢٧٣١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية والموادعة، رقم الحديث (٣١٨٢)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية، رقم الحديث (١٧٨٥).

(٣) سبل الهدى والرشاد، للصالحي (٦٤/٥). وروي مثله عن الزهري، كما في تفسير جامع البيان للطبري (٣١٨/٢١).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٣٢٢/٢).

سادساً: الفعل أبلغ من القول:

ولما فَرَغ رسول الله ﷺ من قَضيَّةِ الكتاب والصلح، قال لأصحابه: (قُومُوا فَانْحَرُوا، ثم احلقوا)، فلم يقم منهم أحد، وبقوا واجمين من شدة الهم والغم، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ، فدخل على زوجه أم سلمة رضي الله عنها، فذكر لها ما لَقِيَ من الناس، فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا نبي الله، أتحبّ ذلك؟ اخْرُجْ، ثم لا تُكَلِّمْ أحدا منهم كلمة، حتى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ، فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك: نَحَرَ بُدْنَهُ، ودعا حَالِقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا، فَنَحَرُوا، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غَمًّا[1]. أي: ازدحاما[2]، وهو كناية عن مبادرتهم وتسابقهم في امتثال الأمر، أي: أن بعضهم كاد أن يقتل بعضا من شدة التدافع والتزاحم على الحلاق.

***

مكاتبة الملوك والأمراء، ودعوتهم إلى الإسلام

أولاً: الطور العالمي للدعوة:

كان صلح الحديبية فاتحة عهد جديد للإسلام، فقد أَمِنَ به الرسول ﷺ من شرّ قريش وحلفائها، فتفرغ لأداء رسالة الإسلام الخالدة التي لا تقتصر على أناس بعينهم، ولا على زمان أو مكان بعينه. فبدأ ﷺ بمراسلة الملوك والزعماء في داخل الجزيرة العربية وخارجها، يدعوهم إلى الإسلام، فعن أنس رضي الله عنه: «أن نبيّ الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد، رقم الحديث (٢٧٣١).

(٢) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني (١٤/١٤).

كتب إلى كِسْرَى، وإلى قَيْصَرَ، وإلى النَّجَاشِيِّ، وإلى كُلِّ جَبَّارٍ يدعوهم إلى الله تعالى»[1]. وذلك خلال عامي ستة وسبعة للهجرة.

وعندما عزم الرسول ﷺ على إرسال الكتب إلى ملوك العجم قيل له: إنهم لا يَقْبَلُونَ كتابا إلا بِخَاتَمٍ، (فَصَاغَ رسول الله ﷺ خاتما حَلْقَتُهُ فِضَّةً، وَنَقَشَ فيه: مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله)[2].

ثانياً: كتاب رسول الله ﷺ إلى ملك الروم:

ثم أرسل رسول الله ﷺ كتابا إِلى هرقل عظيم الروم مع دِحية الكلبي رضي الله عنه، ونصُّه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الروم: سلامٌ على من اتَّبَعَ الهدى، أما بعد، فإني أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإسلام، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ الله أجرَك مرتين، فإن تَوَلَّيْتَ فإن عليك إثم الأَرِيسِيِّينَ[3]، و﴿ **يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ** ﴾ (آل عمران: ٦٤)).

ولما وصل إلى هرقل كتاب رسول الله ﷺ قال: التَمِسُوا لي ها هنا أحدا من قومه، لِأَسْأَلَهُمْ عنه، وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من كفار قريش في تجارة، فجاءت رسل قيصر لأبي سفيان، ودَعَوْهُ لمقابلة الملك فأجاب، ولما قَدِم عليه

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: كتب النبي إلى الملوك الكفار، رقم الحديث (١٧٧٤).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب: في اتخاذ النبي خاتمًا، رقم الحديث (٢٠٩٢).

(٣) الْأَرِيسِيِّين: جمع أَرِيسِيٍّ، وهو منسوب إلى أَرِيس، وهو الفلاح. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (١/٣٩)، ومعناه: أن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك، ونبه بهؤلاء على جميع الرعايا. انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (١٢/١٠٩).

أبو سفيان مع أصحابه في القدس قال هرقل لترجمانه: سَلْهُمْ أَيُّهُمْ أقربُ نسبًا إلى هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا. فسأله عن صفات النّبيّ ﷺ وشرائع دينه، فأخبره أبو سفيان بها، فاعترف قيصر بنبوّته ﷺ وقال: «إن كان ما تقول حقا فَسَيَمْلِكُ موضع قَدَمَيَّ هاتَين، وقد كنتُ أعلم أنه خارج، لم أكن أَظُنُّ أنه منكم، فلو أني أعلم أني أَخْلُصُ إليه لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، ولو كنتُ عنده لَغَسَلْتُ عن قدميه»[1].. ولكنه لما رأى مخالفة قومه له غلب عليه حبّ الرّئاسة، فلم يُسْلِم، فباء بإثمه وإثم رعيَّته.

ثالثاً: كتاب رسول الله ﷺ إلى ملك الفرس:

وبعث رسول الله ﷺ بكتابه إلى كِسْرى، مع عبد الله بن حُذَافَة السهمي رضي الله عنه، فأمره أن يدفعه إلى عَظِيمِ البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كِسْرى، فلما قرأه مَزَّقَهُ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ[2]. فقُتل كسرى، وتمزقت المملكة الفارسية، ثم زالت من الوجود.

رابعاً: كتب رسول الله ﷺ الحبشة ومصر:

وبعث ﷺ عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه إلى النجاشي ملك الحبشة.

وبعث حاطب بن أبي بَلْتَعة رضي الله عنه إلى المقوقس ملك الإسكندرية، فقال خيرا، ولم يُسْلِم، وأهدى للنبي ﷺ جاريتين؛ هما مارية، وشيرين، وبغلة تسمى دُلْدُل.

وبهذه الكتب والرسائل أخذت الدعوة الإسلامية تنتشر في أقطار الأرض،

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، رقم الحديث (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: كتاب النبي إلى هرقل، رقم الحديث (١٧٧٣).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: كتاب النبي إلى كسرة وقيصر، رقم الحديث (٤٤٢٤).

فبلغت إلى أكثر ملوك العالم، فمنهم من آمن به ونجا، ومنهم من كَفَر وصَدَّ عنه، فخسر الدنيا والآخرة، ومنهم من سالم فَسَلم في دنياه.

***

الدروس المستفادة

- في صلح الحديبية دليل على جواز مهادنة الكفار عند الحاجة إذا رأى الإمام المصلحة فيها.

- الخِيرة فيما يختاره الله لعباده المؤمنين، وإن كرهوه في الظاهر؛ قال تعالى: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ١٩)، فصُلْح الحديبية جعله الله فتحا مبيناً، مع أنه كان في ظاهره هزيمة وصدّاً.

- القدوة العملية تؤثر في النفوس أكثر من الكلام مهما كان مؤثّرا وبليغا؛ فلما أمر النبي ﷺ أصحابه أن ينحروا هديهم، ويحلقوا رءوسهم لم يقم منهم أحد من شدة الهم، فلما فعل ذلك بنفسه بمشورة أم سلمة رضي الله عنها بادر الناس إلى الامتثال.

- في مُكَاتبة الرسول ﷺ للملوك والأمراء دليل على عالمية الإسلام، وأن رسالته لا تقتصر على أناس بعينهم، بل تشمل الناس جميعًا، وتعمّ الأزمنة والأَمْكنة كلها؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

***

أخي الطالب/أختي الطالبة:

للتوسع في موضوعات هذه الوحدة ينظر إلى:

١ – السيرة النبوية لابن هشام رحمه الله.

٢ – سبل الهدى والرشاد، للصالحي.

٣ – الفصول في السيرة لابن كثير.

* * *

الوحدة العاشرة

غزوة الفتح

أخي الطالب/ أختي الطالبة:

يتوقع – بعد دراستك لهذه الوحدة – أن تكون قادرا على:

١ – الإلمام بأحداث غزوة الفتح، ونتائجها، والدروس المستفادة منها.

٢ – استشعار عِظَم خُلُق العفو، وأثره في المجتمعات.

سبب غزوة فتح مكة والاستعداد لها

أولاً: نقْضُ قريش لصلح الحديبية وما تَرتَّب عليه من أحداث:

كان من شروط صلح الحديبية أنّ لكل قبيلة الحق في أن تتحالف مع مَن شاءت، فدخلت خزاعة في حلف المسلمين، ودخلت بنو بَكر في حلف المشركين، وكان بين خزاعة وبني بَكر ثارات قديمة، فأراد بنو بَكر أن ينتهزوا فرصة الهدنة؛ ليصيبوا من خزاعة الثأر القديم، فبيّت نفر من بني بَكر لخزاعة، وهم على ماء لهم يدعى الوتير، فأصابوا منهم رجالا، وتناوشوا واقتتلوا، وأعانت قريش بني بَكر بالسّلاح، وقاتل معهم رجال من قريش مستخفين ليلا، حتّى انحازت خُزاعة إلى الحرم؛ إذ لم تكن متأهبة لحرب، فلمّا انتهوا إليه قالت بنو بَكر لرئيسهم نوفل بن معاوية: إنّا قد دخلنا الحَرَم، إلهك! إلهك! فقال نوفل كلمة عظيمة: لا إله اليوم! يا بني بَكر، أصيبوا ثأركم، فلا تجدون هذه الفرصة بعد ذلك.

فَاسْتَنْجَدَت خُزاعة بالمسلمين، وقَدِم عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة، فأنشد أبياتا من الشعر أمام الرسول ﷺ يستنصره فيها، وينشده الحلف الذي كان بينه وبين خزاعة؛ فقال الرسول ﷺ: (قد نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم).

ثم بعث رسول الله ﷺ إلى قريش رجلا يخيّرهم بين دفع دية قتلى خزاعة أو البراءة من حِلف بكر أو القتال، فاختارت القتال[1]، وبذلك أعذَر ﷺ وأنذَر.

ثم ندمت قريش، وشعرت بخطورة الأمر، فأرسلت أبا سفيان إلى المدينة يطلب تجديد المعاهدة والزيادة في المدة، فلما قَدِم المدينة جاء رسول الله ﷺ فعرض عليه ما

(١) انظر: تاريخ الإسلام، للذهبي (٥٢٨/٢).

جاء له، فلم يردّ عليه شيئا، ثم ذهب إلى أبي بكر ﷺ، فطلب منه أن يُكلِّم له رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب ﷺ فكلمه، فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذَّرَّ – أي النمل – لَجَاهَدْتُكُمْ به، ثم جاء فدخل على علي وفاطمة، فاستشفع بهما، فلم يفعلا، فاستنصح أبو سفيان عليا ﷺ بعد أن اشتدّت عليه الأمور، فنصحه أن يقوم هو، فيجير بين الناس، ففعل، ولكن لم يجزه رسول الله ﷺ، فرجع إلى مكة خائبا[1].

ثم أمر النبي ﷺ أهله أن يجهزوه، ولم يُسمِّ وجهته[2]. وأمر أصحابه بالتجهز والاستعداد للغزو، وحرص على إخفاء أمره؛ لئلا تستعد قريش لقتاله، فتستباح حُرْمَة البلد الحرام، وسأل الله ﷻ، أن يُعمي على قريش الأخبار، فاستجاب له ربه، تبارك وتعالى.

ثانياً: سَيْرُ المسلمين قبل مكة وما وقع في من الأحداث:

خرج ﷺ لعشر خلون من رمضان، واستخلف على المدينة أبا رُهْم كلثوم بن حُصين الغِفَاري ﷺ[3]، وكان معه ﷺ عَشَرَةُ آلاف من المسلمين، وذلك على رَأْسِ ثَمَانِ سنين ونصف من مَقْدَمِهِ المدينة، فسار هو ومن معه إلى مكة، حتى نزل بِمَرِّ الظَّهْرَان قرب مكة، فأمر الناس بإيقاد النيران؛ لتظهر قوة الجيش الإسلامي، فتستسلم قريش دون قتال، ويدخل المسلمون مكة دون إراقة الدماء.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٢/٣٩٦)، وزاد المعاد، لابن القيم (٣/٣٥٠)، والفصول، لابن كثير، ص (١٩٦ –١٩٧).

(٢) دلائل النبوة، للبيهقي (٥/١٢)، والبداية والنهاية، لابن كثير (٦/٥١٩).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٤/٢٢٢)، (٢٣٩٢). وحسنه الأرناؤوط في تحقيقه للمسند.

وكان قد خرج من مكة أبو سفيان وحكيم بن حزام وبُديل بن ورقاء يلتمسون الأخبار، فلقيهم العباس بن عبد المطلب على بغلة رسول الله ﷺ في تلك الليلة، – وكان قد لقي المسلمين في الطريق مسلما قادما من مكة[1] – فلما سمع العباس أصواتهم عرفهم، فقال: أبا حنظلة! فعرفه أبو سفيان، فقال: أبو الفضل؟ قال نعم. قال: مَالَكَ، فداك أبي وأُمي؟! قال العباس رضي الله عنه: هذا رسولُ الله ﷺ في الناس، قال أبو سفيان: فما الحيلةُ؟ قال العباس: اركب معي هذه البغلة حتى آتِيَ بِكَ رسول الله ﷺ أَسْتَأْمِنَهُ لَكَ. قال: فركب خلفي، فدخلتُ على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (اذهب به إلى رَحْلِكَ يا عباس، فإذا أصبح فَأْتِنِي به)، قال العباس: فذهبتُ به إلى رَحْلِي، فباتَ عندي، فلما أصبح غَدَوْتُ به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: (وَيْحَكَ يا أبا سفيان، ألم يأنِ لكَ أن تعلم أن لا إله إلا الله؟) قال: بأبي أنت وأمي، ما أَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ، والله لقد ظننتُ أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عَنِّي شيئا. قال: (وَيْحَكَ يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أَنِّي رسول الله؟)، قال: بأبي أنت وأمي، ما أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ، هذه، والله كان في نفسي منها شيء حتى الآن. قال العباس رضي الله عنه: وَيْحَكَ يا أبا سفيان أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله قبل أن تُضْرَبَ عنقك، قال: فشهد بشهادة الحق وأسلم. قال العباس رضي الله عنه: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يُحِبُّ هذا الفخر، فاجعل له شيئا. قال: (نَعَمْ، مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومَن أغلق بابه فهو آمن، ومَن دخل المسجد فهو آمن). فلما ذهب لينصرف، قال رسول الله

(١) انظر: المعجم الكبير، للطبراني (٩/٨)، (٧٢٦٤). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٣٤١).

ﷺ: (يا عباس، احبسه بِمَضِيقِ الوادي عند خَطْمِ الجبل[1]، حتى تَمُرَّ به جنود الله فيراها). قال: فخرجتُ به حتى حَبَسْتُه حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه قال: وَمَرَّتْ به القبائل على رَايَاتِهَا، كلَّما مَرَّتْ قبيلة قال: مَن هؤلاء؟ فأقول: بنو فلان. فيقول: مالي ولبني فلان؟! حتى مَرَّ رسول الله ﷺ في الْخَضْرَاءِ[2]، كتيبة فيها المهاجرون والأنصار، لا يُرَى منهم إلا الْحَدَقَ أي: العيون، قال أبو سفيان: سبحان الله، مَن هؤلاء، يا عباس؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. فقال أبو سفيان: ما لِأَحَدٍ بهؤلاء قِبَلٌ وَلَا طَاقَةٌ، والله يا أبا الفضل، لقد أَصْبَحَ مُلكُ ابن أخيكَ الْغَدَاةَ عظيما. فقال العباس رضي الله عنه: يا أبا سفيان، إِنَّهَا النُّبُوَّةُ. قال: فَنَعَمْ إِذَنْ. قال العباس رضي الله عنه: النَّجَاء إلى قومك. فخرج أبو سفيان حتى إذا جاءهم صَرَخَ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَلَ لَكُمْ به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: وَيْلَكَ، وما تُغْنِي عَنَّا دَارُكَ؟ قال: ومَن أغلق بابه فهو آمن، ومَن دخل المسجد فهو آمن، فَتَفَرَّقَ الناس إلى دُورِهم وإلى المسجد[3].

ثالثاً: تقسم الجيش ودخول مكة:

ثم قسَّم النبي ﷺ جيشه استعدادا لدخول مكة، فجعل خالد بن الوليد رضي الله عنه على الْمُجَنِّبَةِ – أي الكتيبة – الْيُمْنَى، والزبير بن العوام رضي الله عنه على الْمُجَنِّبَةِ الْيُسْرَى،

(١) خَطْمِ الجبل: أي أنف الجبل، وإنما حبسه هناك لكونه مضيقا ليرى الجميع ولا يفوته رؤية أحد منهم. فتح الباري، لابن حجر (٨/٨).

(٢) الكتيبة الخضراء: سمّيت بذلك لغلبة الحديد على أهلها، شبّه السّواد بالخضرة، والعرب تطلق الخضرة على السّواد. انظر: سبل الهدى والرشاد، للصالحي (٢٨٣/٥).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٩/٨ – ١٢)، رقم الحديث (٧٢٦٤)، وصححه الحافظ ابن حجر في المطالب العالية برقم (٤٣٠١)، والألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٣٤١).

وجعل أبا عبيدة بن الجراح ﷺ على الرَّجَّالَةِ[1] الذين لا خيل لهم، وليس معهم من السلاح ما يثقلهم. وأمرهم أن يكفُّوا أيديهم عند دخول مكّة، وأن لا يقاتلوا إلّا من اعترضهم، وقاتلهم[2].

وجمع عِكرمة بن أبى جهل، وصفوان بن أُميَّة، وسهيل بن عمرو، سفهاء قريش بالخَنْدَمَةِ؛ لِيقاتِلُوا المسلمين، وكان حِمَاسُ بنُ قيس يُعِدُّ سلاحاً قبل دخول رسول الله ﷺ، فقالت له امرأتُه: لماذا تُعِدُّ ما أرى؟ قال: لِمحمد وأصحابه، قالت: واللهِ ما يقومُ لِمحمد وأصحابه شيء، فقال مغترًّا: إني واللهِ لأرجو أنْ أُخْدِمَكِ بعضَهم. ثم شهد الخَنْدَمَةَ مع صفوان وعِكرمة ومَن عاونهم، فلما لَقِيَهُم المسلمون تناوشوا واقتتلوا، فَقُتِل كُرز بن جابر الفهري، وخُنَيْس بن خالد من المسلمين، وكانا قد شذَّا عن الجيش، فسلكا طريقاً غيرَ طريقه، فقُتِلا جميعاً، وأُصيبَ من المشركين نحو اثني عشر رجلاً، ثم انهزموا، وانهزم حِماس صاحبُ السلاح حتى دخل بيته، فقال لامرأته: أغلقي عليَّ بابي، فقالت: وأين ما كنتَ تقول؟ فأنشد:

إِنَّكِ لَوْ شَهِدْتِ يَوْمَ الخَنْدَمَهْ ❖ إِذْ فَرَّ صَفْوانُ وَفَرَّ عِكْرِمَهْ
وَأَبُو يَزِيدَ قَائِمٌ كَالْمُوتَمَهْ[3] ❖ وَاسْتَقْبَلَتْهُمْ بِالسُّيُوفِ الْمُسْلِمَهْ
يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمْجُمَهْ ❖ ضَرْبًا فَلَا يُسْمَعُ إِلَّا غَمْغَمَهْ[4]

(١) خبر ذلك رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: فتح مكة، رقم الحديث (١٧٨٠).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٤٠٩/٢).

(٣) الْمُوتَمَهْ: المرأة التي قتل زوجها، فبقي لها أولاد أيتام. انظر: سبل الهدى والرشاد، للصالحي (٢٩٠/٥).

(٤) الغَمْغَمَهْ: أصوات غير مفهومة من اختلاطها. انظر: سبل الهدى والرشاد، للصالحي (٢٩٠/٥).

لَهُـمْ نَهِيـتٌ[1] خَلْفَنَـا وَهَمْهَمَـهْ ❖ لَمْ تَنْطِقِي فِي اللَّـوْمِ أَدْنَى كَلِمَـهْ[2]

***

فتح مكة وإعلان العفو العام

أولاً: دخول مكة:

دخل النبي ﷺ يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته، مُرْدِفًا أسامة بن زيد رضي الله عنه، ومعه بلال وعثمان بن طلحة رضي الله عنه من الحَجَبَة[3]، وعلى رأسه المِغْفَرُ[4]، ورأسه يكاد يمسّ مقدمة الرَّحل من تواضعه لربه عز وجل[5]، فلما دخل المسجد كان حول البيت سِتُّونَ وَثَلاَثُمائة نُصُبٍ، فجعل يطعنها بِعُودٍ في يده، ويقول: ﴿ **جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ (الإسراء: ٨١)، ﴿ **جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ** ﴾ (سبأ: ٤٩)[6]. فتساقطت الأصنام واحدة تلو الأخرى، وتم تطهير البيت الحرام منها؛ ليعود كما أراد له الله تعالى؛ مكانا ﴿ **لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ** ﴾ (البقرة: ١٢٥).

---

(١) النَّهِيت: نوع من صياح الأسد؛ كالزّئير إلا أنه دونه. انظر: سبل الهدى والرشاد، للصالحي (٥/٢٩٠).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٢/٤٠٧ – ٤٠٨)، وزاد المعاد، لابن القيم (٣/٣٥٦ – ٣٥٧)، والبداية والنهاية، لابن كثير (٦/٥٥٦).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: دخول النبي ﷺ من أعلى مكة، رقم الحديث (٤٢٨٩).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب: المغفر، رقم الحديث (٥٨٠٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب: جواز دخول مكة بغير إحرام، رقم الحديث (١٣٥٧).

(٥) الفصول في السيرة، لابن كثير ص (٢٠١).

(٦) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: ﴿ **وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ** ﴾، رقم الحديث (٤٧٢٠)، ومسلم في صحيه، كتاب الجهاد والسير، باب: إزالة الأصنام من حول الكعبة، رقم الحديث (١٧٨١).

فلما فرغ من طوافه ﷺ أتى الصفا، فعلا عليه حتى نظر إلى البيت، ورفع يديه، فجعل يحمد الله، ويدعو بما شاء أن يدعو[1]. ثم أمر عثمان بن طلحة رضي الله عنه أن يأتي بمفتاح البيت فَفَتَح[2]، قال ابن عباس رضي الله عنه: وأبى ﷺ أن يدخل البيتَ، وفيه الآلهة، فَأَمَرَ بها، فَأُخْرِجَتْ، فَأَخْرَجَ صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأَزْلاَمِ، فقال النبي ﷺ: (قاتلهم الله، لقد علموا: ما اسْتَقْسَمَا بها قطّ)، ثم دخل البيت، فَكَبَّرَ فِي نَوَاحِي البيت[3]. ومعه أسامة بن زيد رضي الله عنه، وبلال رضي الله عنه، وعثمان بن طلحة رضي الله عنه، فَمَكَثَ فيه نهارا طويلا، ثم خَرَجَ[4].

ثم قام ﷺ على دَرَجِ الكعبة، فَحَمِدَ الله، وَأَثْنَى عليه، وكَبَّر ثلاثاً، ثم قال: (الحمد لله الذي أَنْجَزَ وعده، ونَصَر عبده، وهزم الأحزاب وحده) ألا إن كل مَأْثُرَةٍ[5] كانت في الجاهلية، فإنها تحت قَدَمَيَّ اليوم، إلا ما كان من سِدَانَةِ البيت، وَسِقَايَةِ الحاج. ألا وإن ما بين العمْدِ والخطأ القتل بِالسَّوْطِ وَالْحَجَرِ، فيها مائة بعير، منها أربعون في بطونها أولادها[6]. يا أيها الناس، إن الله قد أَذْهَبَ عنكم عُبِّيَّةَ[7] الجاهلية وَتَعَاظُمَهَا بآبائها، فالناس رجلان: بَرٌّ تَقِيٌّ كريمٌ على الله، وفاجرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ على

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: فتح مكة، رقم الحديث (١٧٨٠).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: الردف على الحمار، رقم الحديث (٢٩٨٨).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: أين ركز النبي الراية يوم الفتح، رقم الحديث (٤٢٨٨).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، الكتاب، والباب السابقان، رقم الحديث (٤٢٨٩).

(٥) مَأْثُرَةٍ: بفتح ميم وضم مُثَلَّثَة أو فتحها: كل ما يُذكر، ويُؤثر من مكارم أهل الجاهلية ومفاخرهم. انظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١٣٨/٢).

(٦) رواه أحمد في مسنده (٥٢١/٨)، (٤٩٢٦)، وأبو داود في سننه، كتاب الديات، باب: دية الخطأ شبه العمد، رقم الحديث (٤٥٤٧)، والحديث صححه الألباني في إرواء الغليل، (٢٥٦/٧).

(٧) عُبِّيَّةَ: الكبر والنخوة. انظر: شرح السنة، للبغوي (١٢٤/١٣).

الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: ١٣)»[(١)].

ثانياً: إعلان العفو العام:

استكمل رسول الله ﷺ حديثه إلى أهل مكة، فنادى فيهم قائلا: (يا معشر قريش، ما تقولون؟) قالوا: نقول: ابنُ أخ، وابنُ عَمٍّ رَحِيمٌ كَرِيمٌ، ثم عَادَ عليهم القول قالوا مثل ذلك، قال: (فإني أقول كما قال أخي يوسف: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (يوسف: ٩٢)[(٢)]، اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ[(٣)]. فعفا عنهم الرسول ﷺ بعد أن تمكَّن منهم ومن أموالهم وذراريهم، مع أنهم ألدّ أعدائه، أخرجوه من بلده، وهمُّوا بقتله، وضربوه وشجُّوه، ولم يتركوا بابا من أبواب الأذى والعداء إلا سلكوه.

وبهذه الأخلاق الرفيعة العالية تمكّن الإسلام من قلوبهم، فأقبلوا عليه، ودخلوا

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجرات، رقم الحديث (٣٢٧٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير، (٣٦٨/١).

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، قوله تعالى: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ ﴾ (الإسراء: ٨١)، رقم الحديث (١١٢٣٤)، والأموال، للقاسم بن سلام ص (١٤٣)، وسنده حسن مرسل؛ كما قال العمري في السيرة النبوية الصحيحة (٤٨١/٢).

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب: فتح مكة حرسها الله تعالى، (١٨٢٧٦)، وسيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٤١٢/٢)، وزاد المعاد لابن القيم (١٥٩/٣). وقد ورد وصف مُسْلِمَة الفتح بالطلقاء في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم الحديث (٤٣٣٣)، وصحيح مسلم، رقم الحديث (١٠٥٩).

في دين الله أفواجا.

ولما كان اليومُ الثاني من الفتح خطب ﷺ فَحَمِدَ الله، وأثنى عليه، وبين حُرْمَة مكّة، وأنها لم تحلّ لأحدٍ قبله، ولا تحلّ لأحدٍ بعده، فقال: (إن مكة حَرَّمَهَا الله، ولم يُحَرِّمْهَا الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يَسْفِكَ بها دما، ولا يَعْضِدَ بها شجرة، فإن أحد تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رسول الله ﷺ فيها، فقولوا: إن الله قد أَذِنَ لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أَذِنَ لي فيها ساعة من نهار، ثم عادت حُرْمَتُهَا اليوم كَحُرْمَتِهَا بالأمس، وَلْيُبَلِّغ الشاهد الغائب)[1].

ثالثاً: مبايعة أهل مكة على الإسلام:

اجتمع النّاس بمكة ليبايعوا رسول الله ﷺ إلا القليل، «فَبَايَعَهُمْ على الإيمان بالله، وشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله»[2]، والسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، وبايعهم رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً[3].

وكان فيمن بايعهنّ هِنْدُ زوجة أبي سفيان التي أهدر الرسول دمها يوم الفتح؛ لعِظَم جريرتها، حيث إنها أتت مع النساء مُنْتَقبة متنكّرة، وبايعت، فلما علم بها، عفا عنها، وقَبِل بيعتها، فقالت: «يا رسول الله، ما كان على ظهر الأرض من أهل خِبَاءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ يَذِلُّوا مِن أهل خِبَائِكَ، ثم ما أصبحَ اليوم على ظهر الأرض أهلُ

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب: ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم الحديث (١٠٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب: تحريم مكة وصيدها، رقم الحديث (١٣٥٤).

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٦١/٢٤)، (١٥٤٣١)، وحسنه الألباني في تعليقه على فقه السيرة ص (٣٨٧).

(٣) انظر: حديث الأسود بن خلف في الأحاديث المختارة، للضياء المقدسي برقم (١٤٤٢)، وحسن المؤلف إسناده، وانظر: البداية والنهاية، لابن كثير (٦١٦/٦).

خِبَاءٍ، أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ يَعِزُّوا مِن أهل خِبَائِكَ، قال: (وأيضا، والذي نفسي بيده)[1]. وكان من سنَّته ﷺ في مبايعة النساء أن يأخذ عليهنّ الميثاق كلاما، لا مصافحة؛ قالت عائشة رضي الله عنها: «والله ما مَسَّتْ يدُ رسول الله ﷺ يدَ امرأة قط، غير أنه يُبَايعُهُنَّ بالكلام»[2].

وهكذا قضى الإسلام على الوثنية والشرك في بلد التوحيد ومهد الإسلام، فلم تَقُم بعده للشرك قائمة فيه.

***

الدروس المستفادة

- بيان عاقبة نقْضُ العهد، وأن ضرر ذلك راجع إلى صاحبه؛ قال تعالى: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ (الفتح: ١٠)، فقريش لما نقضت عهدها حلّت بها الهزيمة، وباءت بالفشل.

- النصر ليس مدعاة للفخر والخيلاء، فالنبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح خاشعا متواضعا لربه شاكراً له على آلائه ونعمه.

- عظيم خُلُقه ﷺ وحلمه وعفوه؛ فإنه لم ينتقم من أعدائه الذين طالما آذوه واضطهدوه وأرادوا قتله، بل عفا عنهم، وأكرمهم بعد أن تمكن منهم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب: ذكر هند بنت عتبة، رقم الحديث (٣٨٢٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب: قضية هند، رقم الحديث (١٧١٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب: إذا أسلمت المشركة أو النصرانية تحت الذمي، رقم الحديث (٥٢٨٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب: كيفية بيعة النساء، رقم الحديث (١٨٦٦).

- تعظيم حُرْمة مكة، وتأكيد الرسول الله ﷺ على أنها لم تحل لأحد قبله، ولا تحل لأحد بعده.

***

أخي الطالب/أختي الطالبة:

للتوسع في موضوعات هذه الوحدة ينظر إلى:

١ – زاد المعاد في خير هدي العباد، لابن القيم.

٢ – السيرة النبوية لابن هشام.

٣ – الفصول في السيرة لابن كثير.

***

الوحدة الحادية عشرة

غزوة تبوك وحجة الوداع

أخي الطالب/ أختي الطالبة:

يتوقع – بعد دراستك لهذه الوحدة – أن تكون قادرا على:

١ – الإلمام بأحداث غزوة تبوك، ونتائجها، والدروس المستفادة منها.

٢ – معرفة هدي النبي ﷺ في استقبال الوفود ودعوتهم.

٢ – الإلمام بحجة الوداع، وصفتها النبوية.

غزوة تبوك

أولاً: سبب الغزوة والتجهيز لها:

بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت له الجموع تريد غزوه في بلاده، وأجلبت إلى جانبها لخم وجذام وغسّان وغيرها من قبائل العرب التي كانت تحت سُلْطة الروم[1]، فندب رسول الله ﷺ الناس إلى الجهاد، وأعلمهم بغزو الروم، وكان لا يريد غزوة إلا وَرَّى بغيرها؛ ليعمّي الأخبار على العدو إلّا في هذه الغزوة[2]، ليوقف الصحابة على الأمر الجلل الذي يقدم عليه، حتى يأخذوا للأمر أهبته.

ورغّب النبي ﷺ أصحابه في الإنفاق لتجهيز جيش العُسْرة، فقال: (مَن جَهَّزَ جيش العُسْرَة فَلَهُ الجنة)، فجهزه عثمان بن عفان رضي الله عنه[3]، فالتزم بثلاثمائة بعير بِأَحْلَاسِهَا[4] وَأَقْتَابِهَا[5]. وجاء بألف دينار، فَنَثَرَهَا في حِجْرِهِ ﷺ. قال الراوي: فرأيتُ النبي ﷺ يُقَلِّبُهَا في حِجْرِهِ ويقول: (ما ضَرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم). قالها مِرارا[6].

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد (١٦٥/٢)، وزاد المعاد، لابن القيم (٤٦٢/٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: من أراد غزوة فورى بغيرها، رقم الحديث (٢٩٤٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك، رقم الحديث (٢٧٦٩).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب: إذا وقف أرضًا أو بئرًا، رقم الحديث (٢٧٧٨).

(٤) الأحلاس: جمع حِلْس، وهو كساء يوضع على ظهر البعير تحت الرحل. الأقتاب: جمع قَتَب، وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٨٠/٧)، (١٤/٩).

(٥) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (٥٤/٧)، والبداية والنهاية، لابن كثير (٣٥٠/١٠).

(٦) رواه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، رقم الحديث (٣٧٠١)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٢٠١/٨).

وتسابق الصحابة ﷺ إلى الإنفاق، وتنافسوا في ذلك، فقال عمر ﷺ: اليوم أسبق أبا بكر ﷺ إن سبقتُه يوما، وذلك لكثرة ما كان عنده من المال، فجاء أبو بكر الصديق ﷺ بماله كله، وهو أربعة آلاف درهم، فقال رسول الله ﷺ: (هل أبقيتَ لأهلك شيئا؟)، فقال: أبقيتُ لهم الله ورسوله. وجاء عمر بن الخطاب ﷺ بنصف ماله، فقال رسول الله ﷺ: (ما أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) قال: مثل ما جئتُ به، فقال عمر ﷺ: لا أُسابِقُكَ إلى شيءٍ أبداً[1]. وساهم كل مسلم بما قدر عليه، فمنهم من أتى بالكثير، ومنهم من أتى بالقليل، حتى جاء خيثمة الأنصاري ﷺ بصاع تمر، فَلَمَزه المنافقون، وسخروا منه[2].

ثانياً: المقام في تبوك وما وقع لرسول الله ﷺ من ظفر النصر:

خرج رسول الله ﷺ يوم الخميس في ثلاثين ألفا إلى تبوك، وكان أكبر جيش خرج به في غزوة، واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاريّ ﷺ، وخَلَّفَ على النساء والذرية عليّ بن أبي طالب ﷺ[3].

ولما اقترب ﷺ من تبوك قال لهم: (إنكم ستأتون غدا، إن شاء الله، عَيْنَ تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يُضْحِيَ النهار، فمن جاءها منكم فلا يَمَسَّ من مائها شيئا حتى آتِيَ)، قال معاذ بن جبل ﷺ: فجئناها، وقد سَبَقَنَا إليها رجلان، وَالْعَيْنُ

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب: في الرخصة في ذلك، رقم الحديث (١٦٧٨)، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، رقم الحديث (٣٦٧٥)، وقال: «حسن صحيح»، وصححه ابن الملقن في البدر المنير (٤١٣/٧). وانظر: سبل الهدى والرشاد، للصالحي (٤٣٥/٥).

(٢) خبر ذلك رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب: الحمل بأجرة يتصدق بها، رقم الحديث (١٠١٨).

(٣) انظر: تاريخ الإسلام، للذهبي (٣٦٣/٢ – ٣٦٤)، وزاد المعاد، لابن القيم (٤٦٣/٣)، والفصول، لابن كثير، ص (٢١٠).

مثل الشِّرَاكِ[1] تَبِضُّ – أي: تَقْطُرُ وتسيل – بشيءٍ من ماء، قال: فسألهما رسول الله ﷺ: (هل مسِسْتُمَا من مائها شيئا؟) قالا: نعم، فوبخهما النبي ﷺ، وقال لهما ما شاء الله أن يقول. ثم غَرَفُوا بأيديهم من العين قليلا قليلا، حتى اجتمع في شيء، فَغَسَل رسول الله ﷺ فيه يَدَيْهِ وَوَجْهَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فيها، فَجَرَت العين بماء مُنْهَمِرٍ، حتى اسْتَقَى الناس، ثم قال: (يُوشِكُ، يا معاذ، إن طَالَتْ بِكَ حياة، أن ترى ما هاهنا قد مُلِئَ جِنَانًا)[2].

وقد تحقق ما أخبر به الرسول ﷺ بعد فترة وجيزة من الزمن، فتحولت بلدة تبوك من أرض جرداء إلى بقعة خضراء، مزدهرة بجنانها وبساتينها ونخيلها ومحاصيلها الزراعية المختلفة.

وأَقَامَ الرسول ﷺ بتبوك عشرين يوما[3]، لم يلق فيها كيدًا؛ حيث قذف الله الرُّعْبَ في قلوب الروم والقبائل العربية المتنصّرة، فخافوا الخروج إليهم، وانسحبوا إلى معاقلهم داخل بلاد الشام.

ولَّما لم يأت أحد من الروم وحلفاءهم قفل ﷺ راجعًا إلى المدينة. وقد كسب عددا من القبائل العربية الموالية للروم إلى جانب المسلمين، وتوسعت حدود الدولة الإسلامية، حتى لاقت حدود دولة الرومان.

وكان من بركة ما من الله به على نبيه ﷺ من فتح مكة والرجوع سالما من تبوك

---

(١) الشِّرَاك: هو سير النعل، ومعناه ماء قليل جدا. انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (١٥/٤١).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب: في معجزات النبي، رقم الحديث (٦٠٨٦).

(٣) رواه أبو داود في سننه، كتاب صلاة المسافر، باب: إذا قام بأرض العدو يقصر، رقم الحديث (١٢٣٥)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٣/٢٣).

أن جاءته الوفود من أنحاء العرب تُعلن إسلامها، وخضوعها لله ولرسوله، وتتابعت حتى سُمي العام التاسع للهجرة عام الوفود، وإن كانت بعض الوفود وفدت قبلها، وبعضها بعدها.

وكان ﷺ يستقبل تلك الوفود، ويحسن وفادتهم، فلمّا أتى وفد عبد القيس رحّب بهم ﷺ فقال: (مرحبًا بالقوم غير خَزَايَا وَلاَ نَدَامَى)[1]، ولما قدم الأشعريون من اليمن قال النبي ﷺ: (أتاكم أهل اليمن هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً وَأَلْيَنُ قلوبًا، الإيمان يَمَانٍ، والحكمة يَمَانِيَةٌ)[2]. وكان ﷺ يبايعهم على الإسلام، ويُعلِّمهم أمور دينهم، ويدعو مَن لم يُسْلِم منهم، ثم يكلّفهم دعوة مَن وراءهم، فقد كلَّف ﷺ وفد عبد القيس حِفْظُ المتقدم ما أمرهم به وتبليغه، فقال: (احْفَظُوهُنَّ، وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ)[3].

وكان يزوِّد الوفد بما يحتاجه من الطعام إذا رجع عند الحاجة.

***

حجة الوداع

عزَم رسول الله ﷺ على الحج في السنة العاشرة من الهجرة، وأعلَم الناس أنه حاج، فتجمَّع الناس من كل صوْب وحدب، يريدون أن ينالوا شرف الحج مع

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: أداء الخمس من الإيمان، رقم الحديث (٥٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: الأمر بالإيمان بالله ورسوله، رقم الحديث (١٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: قدوم الأشعريين، رقم الحديث (٤٣٨٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان فيه، رقم الحديث (٥٢).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: أداء الخمس من الإيمان، رقم الحديث (٥٣).

الرسول ﷺ حتى بلغت عدة المسلمين يومئذ مائة ألف أو يزيدون، وحتى حج معه مَن لم يره قبلها ولا بعدها، ونالوا بذلك نصيباً من الصُحبة[1].

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: مكث رسول الله ﷺ تسع سنين لم يحج، ثم أَذَّنَ في الناس في العاشرة أن رسول الله ﷺ حَاجٌّ، فَقَدِمَ المدينة بشرٌ كثيرٌ، كلهم يَلْتَمِسُ أن يَأْتَمَّ برسول الله ﷺ، ويعمل مثل عمله، فخرجنا معه، حتى أتينا ذَا الْحُلَيْفَةِ، فَوَلَدَتْ أسماءُ بنت عميس محمدَ بن أبي بكر رضي الله عنه، فَأَرْسَلَتْ إلى رسول الله ﷺ: كيف أصنع؟ قال: (اغْتَسِلِي، وَاسْتَثْفِرِي بثوب وأحرمي) فصلى رسول الله ﷺ في المسجد، ثم ركب الْقَصْوَاءَ، حتى إذا استوت به ناقته على الْبَيْدَاءِ، نَظَرْتُ إلى مَدِّ بَصَرِي بين يديه، من راكبٍ وماشٍ، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خَلْفِهِ مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أَظْهُرِنَا، وعليه ينزل القرآن، وهو يَعْرِفُ تَأْوِيلَهُ، وما عمل به من شيء عملنا به، فَأَهَلَّ بالتوحيد (لبيك اللهم، لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك) وَأَهَلَّ الناس بهذا الذي يُهِلُّونَ به، فلم يَرُدَّ رسول الله ﷺ عليهم شيئا منه، وَلَزِمَ رسول الله ﷺ تَلْبِيَتَهُ، قال جابر رضي الله عنه: لسنا نَنْوِي إلا الحج، لسنا نعرف العمرة، حتى إذا أَتَيْنَا البيت معه، استلم الركن فَرَمَلَ ثلاثا، ومشى أربعا، ثم نَفَذَ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿ **وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى** ﴾ (البقرة: ١٢٥) فَجَعَلَ الْمَقَامَ بينه وبين البيت، وكان يقرأ في الركعتين: ﴿ **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** ﴾، و﴿ **قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ** ﴾، ثم رجع إلى الرُكْن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دَنَا من الصفا قرأ: ﴿ **إِنَّ ٱلصَّفَا**

(١) انظر: العبر في خبر من غبر، للذهبي (١/١٠).

﴿وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١٥٨)، (أَبْدَأُ بما بدأ الله به) فبدأ بالصفا، فَرَقِيَ عليه، حتى رأى البيت فاستقبل القبلة، فَوَحَّدَ الله وكبره، وقال: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده)، ثم دعا بين ذلك، قال: مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة، حتى إذا انْصَبَّتْ قدماه في بطن الوادي سعى، حتى إذا صَعِدَتَا مشى، حتى أتى المروة، فَفَعَلَ على المروة كما فعل على الصفا، حتى إذا كان آخر طوافه على المروة، فقال: (لو أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِن أمري ما استدبرت لم أَسُق الْهَدْيَ، وَجَعَلْتُهَا عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فَلْيَحِلَّ، وَلْيَجْعَلْهَا عمرة)، فقام سراقة بن مالك بن جعشم ﷺ، فقال: يا رسول الله، أَلِعَامِنَا هذا أم لِأَبَدٍ؟ فَشَبَّكَ رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى، وقال: (دَخَلَت العمرة في الحج) مرتين، (لا، بل لِأَبَدٍ أَبَدٍ). وَقَدِمَ عَلِيٌّ من اليمن بِبُدْنِ النبي ﷺ – أي: إبله –، فقال ﷺ: (ماذا قلتَ حين فَرَضْتَ – أي نويت – الحج؟) قال علي: قلتُ: اللهم، إني أُهِلُّ بِمَا أَهَلَّ به رسولُك، قال: (فإن مَعِيَ الْهَدْيَ فَلَا تَحِلُّ). قال جابر ﷺ: فكان جَمَاعَةُ الْهَدْيِ الذي قدم به عَلِيٌّ من اليمن والذي أَتَى به النبي ﷺ مائة، فَحَلَّ الناس كلهم وَقَصَّرُوا، إلا النبي ﷺ ومن كان معه هَدْي، فلما كان يوم التَّرْوِيَةِ تَوَجَّهُوا إلى منى، فَأَهَلُّوا بالحج، وَرَكِبَ رسول الله ﷺ، فصلّى بها – أي: مِنَى – الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم مَكَثَ قليلا حتى طلعت الشمس، وأمر بِقُبَّةٍ مِنْ شَعَرٍ تُضْرَبُ لَهُ بِنَمِرَةَ، فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عَرَفَةَ، فَوَجَدَ الْقُبَّةَ قَدْ ضُرِبَتْ لَهُ بِنَمِرَةَ، فنزل بها، حتى إذا زاغت الشمس أمر

بِالْقَصْوَاءِ، فَرُحِلَتْ له، فأتى بطن الوادي، فخطب الناس، وقال: (إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كَحُرْمَةِ يومكم هذا، في شهركم هذا، في بَلَدِكُمْ هذا، أَلَا كُلُّ شيء من أمر الجاهلية تحت قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أَضَعُ من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعا في بني سعد فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وربا الجاهلية موضوع، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا ربا عباس بن عبد المطلب؛ فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء؛ فإنكم أَخَذْتُمُوهُنَّ بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أحدا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غير مُبَرِّحٍ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركتُ فيكم مَا لَنْ تَضِلُّوا بعده إن اعْتَصَمْتُمْ به: كتاب الله، وأنتم تُسْأَلُونَ عَنِّي، فما أنتم قائلون؟) قالوا: نشهد أنك قد بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فقال: بإصبعه السبابة، يَرْفَعُهَا إلى السماء، وَيَنْكُتُهَا إلى الناس (اللهم اشهد، اللهم اشهد) ثلاث مرات، ثم أَذَّنَ، ثم أقام فصلّى الظهر، ثم أقام فصلّى العصر، ولم يُصَلِّ بينهما شيئا، ثم ركب رسول الله ﷺ، حتى أتى الْمَوْقِفَ، فجعل بطن نَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ إِلَى الصَّخَرَاتِ، وجعل حَبْلَ الْمُشَاةِ – أي: صفهم ومجتمعهم – بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يَزَلْ وَاقِفًا حتى غربت الشمس، وذهبت الصُّفْرَةُ قليلا، حتى غَابَ الْقُرْصُ، وَأَرْدَفَ أسامة رضي الله عنه خلفه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شَنَقَ – أي: ضم وضيق – لِلْقَصْوَاءِ الزِّمَامَ، حتى إنّ رأسها لَيُصِيبُ مَوْرِكَ رَحْلِهِ، ويقول بيده اليمنى (أيها الناس، السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ) كلما أتى حَبْلا من الحِبَال[1] أَرْخَى لها قليلا، حتى تصعد، حتى أتى المُزْدلفة، فصلّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يُسَبِّحْ بينهما شيئا – أي: لم يتنفَّل –،

(١) الحَبْل: التَّلّ العظيم اللطيف من الرمل الضخم. انظر: مجمع بحار الأنوار، للفتني (١/٤٤٠).

ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر، وصلّى الفجر، حين تبين له الصبح، بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء، حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعاه، وكبَّره، وهلَّله، وَوَحَّدَهُ، فلم يزل واقفا حتى أَسْفَرَ جِدًّا، فدفع قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن عباس رضي الله عنه، حتى أتى بَطْنَ مُحَسِّرٍ، فَحَرَّكَ – أي: أسرع – قليلا، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة، فرماها بسبع حصيات، يُكَبِّرُ مع كل حصاة منها، مثل حَصَى الْخَذْفِ – أي: صغيرة كحبة الباقلاء –، رمى من بطن الوادي، ثم انصرف إلى الْمَنْحَرِ، فَنَحَرَ ثلاثا وستين بيده، ثم أعطى عَلِيًّا، فَنَحَرَ مَا غَبَرَ، وَأَشْرَكَهُ في هديه، ثم أمر من كل بَدَنَةٍ بِبَضْعَةٍ – أي: قطعة لحم –، فَجُعِلَتْ في قِدْرٍ، فَطُبِخَتْ، فأكلا من لحمها وشربا من مَرَقِهَا»[1].

وخطب يوم النَّحرِ خُطْبة عظيمة أكّد فيها على بعض ما قاله بعرفة وزاد، فقال فيها: (الزمانُ قد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يوم خلق الله السموات والأرض، السنَةُ اثنا عشر شهرا؛ منها أربعة حرم. ثلاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرَّم، ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان، ثم قال: (أَيُّ شهر هذا؟)، قلنا: الله ورسوله أعلم، فَسَكَتَ حتى ظَنَنَّا أنه يُسَمِّيهِ بغير اسمه، قال: (أليس ذا الحجة؟)، قلنا: بلى، قال: (أَيُّ بلد هذا؟)، قلنا: الله ورسوله أعلم، فَسَكَتَ حتى ظننا أنه سَيُسَمِّيهِ بغير اسمه، قال: (أليس البلدة؟)، قلنا: بلى، قال: (فَأَيُّ يوم هذا؟)، قلنا: الله ورسوله أعلم، فَسَكَتَ حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: (أليس يوم النحر؟)، قلنا: بلى، قال: (فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحُرْمَةِ يومكم هذا، في

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب: حجة النبي ﷺ، رقم الحديث (١٢١٨).

بلدكم هذا، في شهركم هذا، وَسَتَلْقَوْنَ ربكم فيسألكم عن أعمالكم، أَلَا فلا ترجعوا بعدي ضُلَّالًا، يضرب بعضكم رقاب بعض، أَلَا لِيُبَلِّغِ الشاهدُ الغائبَ، فَلَعَلَّ بعض مَنْ يَبْلُغُهُ أن يكون أَوْعَى لَهُ مِن بعض مَن سَمِعَهُ)، ثم قال: (أَلاَ هل بَلَّغْتُ، أَلاَ هل بَلَّغْتُ؟)[1].

وأمر ﷺ بالسمع والطاعة لولاة الأمور فقال: (إن أُمِّرَ عليكم عَبْدٌ مُجَدَّعٌ أسود، يَقُودُكُمْ بكتاب الله تعالى، فاسمعوا له وأطيعوا)[2].

وما زال ﷺ يعرّض باقتراب أجله في خطبه، فقال في خُطْبة النَّحْر: «(لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا)[3]. وكان يقول – وهو يرمي على راحلته يوم النَّحْر –: (لِتَأْخُذُوا مناسككم؛ فَإِنِّي لا أدري لَعَلِّي لا أَحُجُّ بعد حجتي هذه)[4].

ثم مكَثَ ﷺ بِمِنَى ليالي أيامِ التشريقِ، يرمي الجمرةَ إذا زالتِ الشمسُ[5]. ثم نَفَر ﷺ من مِنَى، فطاف طواف الوداع، ثم رجع إلى المدينة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾، رقم الحديث (٧٤٤٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين، باب: تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم الحديث (١٦٧٩).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب: استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكب، رقم الحديث (١٢٩٨).

(٣) رواه الطبراني المعجم الأوسط، (٤٧/٣)، (٢٤٣٠). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧٣/٣): «رجاله ثقات».

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب: استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا، رقم الحديث (١٢٩٧).

(٥) رواه أبو داود في سننه، كتاب المناسك، باب: في رمي الجمار، رقم الحديث (١٩٧٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٦/ ٢١٣)..

الدروس المستفادة

- من السنَّةِ إعلام الأعوان بحقيقة الأمور متى كان في إعلامهم تحقيق مصلحة لهم، وفي المقابل يجوز تَعْمِية الأمر عليهم إذا كان لمصلحة راجحة.

- من السنَّة إكرام الضيف وحسن ضيافته، سواء كان الضيف مسلما أو كافرا، فالنبي ﷺ كان يستقبل الوفود، ويحسن وفادتهم.

- في قوله ﷺ للناس حين دفع من عرفة: (أيها الناس، السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ) دليل على أن العاقل يلزم التأني والطمأنينة في الأمور كلها، ولا يستعجل، فالمتأني يصل إلى مقصوده، ويحصل على مراده، والمستعجل يُعرِّض نفسه للخطر، وقد يُفوّت على نفسه مقصوده.

- تعظيم حُرْمة الدماء والأموال والأعراض، والتشديد في أمرها؛ وذلك لأن حفظها أساس متين لبناء وحدة الأمة وترابطها.

- في تحريم وإبطال أمور الجاهلية وتقاليدها دليل على أن المسلم يجب عليه أن يبتعد عن عادات الكفار وتقاليدهم الوافدة، ولا يتشبه بهم، بل ينبغي للمسلم أن يعتزّ بتعاليم دينه، ويفتخر بها.

- تغليظ أمر الربا، والتحذير منه، ولشدة مفاسده على المجتمع، وضرره على الأمة، استنكره الشرع أشد الإنكار، حتى آذن القرآن من يتعاطاه، ويتعامل به بحرب من الله ورسوله؛ قال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ** ﴾ (البقرة: ٢٧٨ – ٢٧٩).

- التعليم بالقدوة أعظم تأثيراً في نفس المتلقي، وأسرع إلى القبول والعمل،

فكان ﷺ يعمل العمل، ويأمر الناس بالتأسي به، فكان يقول لأصحابه في الحج: (خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ).

- أوصى الرسول ﷺ في حجة الوداع بالمرأة خيرا، وبين حقوقها وواجباتها، فرفع بذلك قدرها، وجعلها شقيقة الرجل، بعد أن كانت مُهَانة في المجتمع الجاهلي، تُورث ولا تَرث، وكانت تُملَّك ولا تَملِك.

***

أخي الطالب/أختي الطالبة:

للتوسع في موضوعات هذه الوحدة ينظر إلى:

١ – السيرة النبوية لابن هشام.

٢ – دلائل النبوة للبيهقي.

٣ – الرحيق المختوم للمباركفوري.

***

الوحدة الثانية عشرة

مرض الرسول ﷺ ووفاته

أخي الطالب/ أختي الطالبة:

يتوقع – بعد دراستك لهذه الوحدة – أن تكون قادرا على:

١ – معرفة مقدمات وفاة النبي ﷺ، والأحداث التي رافقت ذلك.

٢ – الوقوف على الوصايا الأخيرة للرسول ﷺ قبل وفاته.

٣ – استنتاج الفوائد والدروس والعِبَر من وفاته ﷺ.

مقدمات الوفاة

بعد أن فُتحت مكة، وبلغت دعوته ﷺ الآفاق، وأقرّ الله عين نبيّه بدخول الناس في دين الله أفواجا، وبدت طلائع انتشاره في العالم، وظهوره على الأديان كلّها؛ أحسّ ﷺ بِدُنُوِّ أَجَلِه، وبدت آثاره، وظهرت أماراته، فأخذ ﷺ يُعرّض بذلك، ويشير إليه في مناسبات مختلفة؛ ومن تلك الأمارات والإشارات:

١ – **تكرار مدارسة** القرآن: فقال النبي ﷺ لفاطمة رضي الله عنها في مرض وفاته: (إن جبريل كان يُعَارِضُنِي القرآن كل سنة مرة، وإنه عَارَضَنِي العَامَ مَرَّتَيْنِ، ولا أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي، وإنكِ أَوَّلُ أَهْلِ بيتي لحاقا بي)[(١)].

٢ – **مضاعفة اعتكاف رمضان:** يقول أبو هريرة رضي الله عنه: (كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قُبِضَ فيه اعتكف عشرين يوما)[(٢)].

٣ – **إخباره ﷺ معاذا بوفاته:** يقول معاذ بن جبل رضي الله عنه: لما بَعَثَهُ رسول الله ﷺ إلى اليمن خَرَجَ معه رسول الله ﷺ يُوصِيهِ، ومعاذٌ رضي الله عنه راكبٌ، ورسول الله ﷺ يمشي تحت رَاحِلَتِهِ، فلما فرغ قال: (يا معاذ، إنك عسى أن لا تَلْقَانِي بعد عامي هذا، ولعلك أن تَمُرَّ بمسجدي هذا وقبري). فبكى معاذ جَشَعًا – أي جزعا – لِفِرَاقِ رسول الله ﷺ[(٣)]. ووقع ما أخبر به الرسول ﷺ؛ فإن معاذاً أقام باليمن، ولم يَقدُم

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب: علامات النبوة، رقم الحديث (٣٦٢٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل فاطمة، رقم الحديث (٢٤٥٠).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب: الاعتكاف في العشر الأوسط، رقم الحديث (٢٠٤٤).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٣٧٦/٣٦)، (٢٢٠٥٢) وقال المحققون إسناده صحيح، وصححه الألباني. انظر: مشكاة المصابيح، (٣٧٩/٣٦).

المدينة إلا بعد وفاة الرسول ﷺ.

٤ – **نزول سورة النصر**: وتُسمَّى سورة التوديع؛ لما فيها من الإيماء إلى وفاته ﷺ وتوديعه الدنيا وما فيها[١]. فقد سأل عمرُ رضي الله عنه ابنَ عباس رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿ **إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ** ﴾ (النصر: ١) فقال: أَجَلُ رسول الله ﷺ أَعْلَمَهُ إِيَّاهُ، فقال عمر رضي الله عنه: ما أعلم منها إلا ما تعلم[٢].

٥ – **توديعه ﷺ للناس في حجة الوداع**: حيث كان يقول في خُطبه: «لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا»[٣].

***

مرض النبي ﷺ ووفاته

بدأ المرض برسول الله ﷺ في أواخر شهر صَفَر حين زار البقيع، وكان مرضه بسبب السُّم الذي وضعته زوجة سلاّم بن مشكم اليهودية في طعامه عقب فتح خَيْبر في السنَةِ السابعة، حتى إن رسوله الله ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها يوم اشتد به المرض: (يا عائشة، ما أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطعام الذي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فهذا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي من ذلك السُّم)[٤]. والأَبْهَرُ: عِرْقٌ إذا انقطع مات صاحبه؛ وهما أَبْهَرانِ يخرجان من القلب، ثم يَتَشَعَّبُ منهما سائر الشَّرايين[٥].

---

(١) تفسير روح المعاني، لشهاب الدين الألوسي (٤٩١/١٥).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب: علامات النبوة، رقم الحديث (٣٦٢٧).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٤٧/٣)، (٢٤٣٠). وقال الهيثمي: «رجاله ثقات». انظر: مجمع الزوائد (٢٧٣/٣).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، رقم الحديث (٤٤٢٨) معلقاً.

(٥) انظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة «بهر».

وكان أَوَّلُ ما اشتكى رسول الله ﷺ في بيت ميمونة رضي الله عنها، فاستأذن أزواجه أن يُمَرَّضَ في بيت عائشة رضي الله عنها فَأَذِنَّ له، فخرج النبي ﷺ بين رجلين، تَخُطُّ رِجْلاَهُ في الأرض، بين عباس، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما[1]، ولما دخل ﷺ بيت عائشة رضي الله عنها، وَاشْتَدَّ به وَجَعُهُ قال: (هَرِيقُوا – أي صُبُّوا – عَلَيَّ من سَبْعِ قِرَبٍ لَمْ تُحْلَلْ أَوْكِيَتُهُنَّ[2]، لَعَلِّي أعهد إلى الناس)، قالت عائشة رضي الله عنها: فَأَجْلَسْنَاهُ فِي مِخْضَبٍ[3] لِحَفْصَةَ زوج النبي ﷺ، ثم طَفِقْنَا نَصُبُّ عليه من تلك القِرَبِ، حتى طَفِقَ يشير إلينا بيده، (أن قد فَعَلْتُنَّ)، قالت: ثم خرج إلى الناس، فَصَلَّى بهم وخَطَبَهم[4].

وكان ﷺ يخرج إلى المسجد، فيصلي بالناس، فلما اشتد به الوجع، وثَقُلَ ﷺ جاء بلالٌ يُؤْذِنُهُ بالصلاة فقال: (مُرُوا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناس)... فخرج أبو بكر رضي الله عنه، فصلَّى، فَوَجَدَ النبي ﷺ من نفسه خِفَّةً، فَخَرَجَ يُهَادَى بين رجلين، كأني أنظر رجليه تَخُطَّانِ من الوجع، فلما دخل المسجد سمع أبو بكر رضي الله عنه حِسَّهُ، فذهب يتأخر، فَأَوْمَأَ إليه رسول الله ﷺ قُمْ مَكَانَكَ، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس عن يسار أبي بكر رضي الله عنه، فكان رسول الله ﷺ يُصَلِّي بالناس جالسا، وأبو بكر رضي الله عنه

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب: الغسل والوضوء في المخضب، رقم الحديث (١٩٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب: استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض، رقم الحديث (٤١٨).

(٢) أَوْكِيَتُهُنَّ: الأوكية جمع: وكاء، وهو الخيط الَّذِي يشد به رَأس الْقِرْبَة. انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني (٩١/٣).

(٣) الْمِخْضَبُ: شِبْهُ الْمِرْكَنِ، وهي إِجَّانَةٌ يُغسل فيها الثياب. انظر: شرح السنة، للبغوي (٤٣/١٤).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: مرض النبي ﷺ، ووفاته، رقم الحديث (٤٤٤٢).

قائما، يَقْتَدِي أبو بكر ﷺ بصلاة النبي ﷺ وَيَقْتَدِي الناس بصلاة أبي بكر ﷺ[1].

ولما كان اليوم الذي قبض فيه النبي ﷺ أحسَّ بنشاط، فكشف الستر؛ ليرى أصحابه، فطابت نفسه برؤيتهم، وقرّت عينه بحالهم حين رآهم يصلون جماعة في المسجد، صفوفهم متراصة، وقلوبهم متحدة، فتبسّم فظنوا أنه شُفي من مرضه، وعُوفي من آلامه، ففرحوا فرحا شديدا.

ولما دخل رسول الله ﷺ الحجرة اضطجع إلى حِجر عائشة ﷺ، فأسندت رأسه إلى صدرها، تقول عائشة ﷺ: دَخَلَ عَلَيَّ عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ، وبيده السواك، وأنا مُسْنِدَةٌ رسول الله ﷺ، فَرَأَيْتُهُ ينظر إليه، وَعَرَفْتُ أنه يُحِبُّ السواك، فقلتُ: آخذه لك؟ فأشار برأسه: (أن نعم) فَتَنَاوَلْتُهُ، فَاشْتَدَّ عليه، وقلتُ: أُلَيِّنُهُ لك؟ فأشار برأسه: (أن نعم) فَلَيَّنْتُهُ[2]، فَاسْتَنَّ به، فما رأيتُ رسول الله ﷺ اسْتَنَّ اسْتِنَانًا قط أحسن منه[3]. قالت عائشة ﷺ: فَجَمَعَ الله بين رِيقِي وَرِيقِهِ في آخر يوم من الدنيا، وأَوَّل يوم من الآخرة[4].

وكان بين يديه ﷺ رَكْوَةٌ أو عُلْبَةٌ فيها ماء، فجعل يُدْخِلُ يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه ويقول: (لا إله إلا الله، إن للموت سَكَرَاتٍ[5]، اللهم أَعِنِّي عَلَى سَكَرَاتِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب الآذان، باب: حد المريض أن يشهد الجماعة، رقم الحديث (٦٦٤)، ومسلم في صحيه، كتاب الصلاة، باب: استخلاف الإمام إذا عرض له عذر، رقم الحديث (٤١٨).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: مرض النبي ووفاته، رقم الحديث (٤٤٤٩).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، الكتاب والباب السابقان، رقم الحديث (٤٤٣٨).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، الكتاب والباب السابقان، رقم الحديث (٤٤٥١).

(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب: سكرات الموت، رقم الحديث (٦٥١٠).

الْمَوْتِ[1]).

فلما رأت فاطمة ﵂ ما وَجَدَ رسول الله ﷺ من كرب الموت قالت: واكَرْبَ أَبَتَاهُ، فقال رسول الله ﷺ: (لا كَرْبَ على أبيك بعد اليوم؛ إنه قد حَضَرَ مِن أبيك ما ليس بتارك منه أحدا، الْمُوَافَاةُ – أي الملاقاة – يوم القيامة)[2].

قالت عائشة ﵂: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من نبي يَمْرَضُ إلا خُيِّرَ بين الدنيا والآخرة)، وكان في شكواه الذي قُبِضَ فيه، أخذته بُحَّةٌ[3] شديدة، فسمعته يقول: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ (النساء: ٦٩) فَعَلِمْتُ أنه خُيِّرَ[4]. وكان يقول، وهو مُسْتَنِدٌ إِلَيَّ: (اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى)[5]. فلما نزل به الموت، ورأسه على فَخِذِي، غُشِيَ عليه سَاعَةً ثم أَفَاقَ، فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إلى السقف، ثم قال: (اللهم الرفيق الأعلى)، قلتُ: إذًا لا يَخْتَارُنَا، وعرفتُ أنه الحديث الذي كان يُحَدِّثُنَا به، فَكَانَتْ تلك آخر كلمة تكلم بها[6]. قالت عائشة ﵂: قُبِضَ رسول الله ﷺ ورأسه بين سَحْرِي وَنَحْرِي، فلما

(١) رواه أحمد في مسنده (٤٠/٤١٥)، (٢٤٣٥٦)، والترمذي في سننه، كتاب الجنائز، باب: ما جاء في التشديد عند الموت، رقم الحديث (٩٧٨)، وحسنه ابن الحجر في فتح الباري (١١/٣٦٢).

(٢) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الجنائز، باب: ذكر وفاته ودفنه ﷺ، رقم الحديث (١٦٢٩). وحسنه الأرنؤوط في تحقيقه له. ورواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: مرض النبي ﷺ، ووفاته، رقم الحديث (٤٤٦٢) مختصراً.

(٣) البُحَّة: غلظ في الصَّوْت وخشونة في الحلق. عمدة القاري، للعيني (١٨/١٧٨).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾، رقم الحديث (٤٥٨٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب: في فضل عائشة، رقم الحديث (٢٤٤٤).

(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المرض، باب: نهي تمني المريض الموت، رقم الحديث (٥٦٧٤).

(٦) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب: من أحب لقاء الله، رقم الحديث (٦٥٠٩).

خَرَجَتْ نَفْسُهُ لم أجد ريحا قط أَطْيَبَ منها[1]. فلما مات ﷺ قالت فاطمة رضي الله عنها: يا أَبَتَاهُ، أجاب ربا دعاه، يا أَبَتَاهُ مَنْ جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل نَنْعَاهْ[2].

وكانت وفاته ﷺ في يوم الاثنين من شهر ربيع الأول سنَة إحدى عشرة من الهجرة بلا خلاف[3]. والجمهور أنها في الثاني عشر من الشهر[4]. وهو ابنُ ثلاثٍ وستين سنَة[5].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: وأوصى ﷺ عند موته بثلاث: (أَخْرِجُوا المشركين من جزيرة العرب[6] وأَجِيزُوا[7] الوفد بِنَحْوِ ما كنتُ أُجِيزُهُمْ)، ونسيتُ الثالثة[8].

وطَفِقَ ﷺ حين اشتد وجعه يطرح خَمِيصَةً[9] له على وجهه، فإذا اغْتَمَّ – أي:

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤١/٣٩١)، (٢٤٩٠٥)، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٨/٧١): «إسناده صحيح على شرط الصحيحين».

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: مرض النبي ﷺ، ووفاته، رقم الحديث (٤٤٦٢).

(٣) انظر: التمهيد، لابن عبد البر (٣/٢٦)، والمنهاج شرح صحيح مسلم، الحجاج، للنووي (١٥/١٠٠).

(٤) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (٨/١٢٩).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب: وفاة النبي ﷺ، رقم الحديث (٣٥٣٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب: كم سن النبي ﷺ يوم قبض، رقم الحديث (٢٣٤٩).

(٦) انظر في المقصود بجزيرة العرب في الحديث والخلاف فيها، كتب شرح الحديث والفقه في هذه المسألة، فقد يطول القول فيها.

(٧) أَجِيزُوا الوفد: أي أعطوهم. والجائزة العطية. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (٨/١٣٥).

(٨) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: جوائز الوفد، رقم الحديث (٣٠٥٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب: ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه، رقم الحديث (١٦٣٧).

(٩) الخَميصة: كساء أسود له أعلام يكون من صوف وغيره. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (١/٤٠٢)

احتبس نفسه – كَشَفَهَا عن وجهه، فقال، وهو كذلك: (لعْنةُ الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) يُحَذِّرُ مثل ما صنعوا[1].

وكانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حَضَرَهُ الموت: (الصلاةَ وما ملكت أيمانكم، الصلاةَ وما ملكت أيمانكم)، حتى جعل رسول الله ﷺ يُغَرْغِرُ بها صدره، وما يكاد يُفِيصُ بها – أي: ما يقدر على الإفصاح بها – لسانه[2].

***

تجهيز الجسد الشريف ودفنه ﷺ

أولاً: مصيبة موته ﷺ، وصعوبة تقبلها من الصحابة رضي الله عنهم:

اشتدت المصيبة بموته ﷺ، واضطرب المسلمون، حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ لم يَمُتْ، ولكن ربه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى، فَمَكَثَ عن قومه أربعين ليلة، والله إني لأرجو أن يَعِيشَ رسول الله ﷺ حتى يَقْطَعَ أيدي رجال من المنافقين وَأَلْسِنَتَهُمْ يَزْعُمُونَ أن رسول الله ﷺ قد مات»[3].

وحينئذ أقبل أبو بكر رضي الله عنه فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فقال أبو بكر: «أما بعد فَمَن كان منكم يَعْبُدُ محمدا ﷺ، فإن محمدا قد مات، ومَن كان مِنكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ**

(١) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة، رقم الحديث (٤٣٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب: النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم الحديث (٥٣١).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢٠٩/١٩)، (١٢١٦٩)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢٣٧/٧).

(٣) رواه أحمد في مسنده، (٣٣١/٢٠)، (١٣٠٢٩)، وقال المحققون: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤)، «فقال عمر رضي الله عنه: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فَعَقِرْتُ – أي: دُهشتُ وتحيرتُ –، حتى ما تُقِلُّنِي رجلاي، وحتى أَهْوَيْتُ إلى الأرض، حين سمعته تلاها علمتُ أن النبي ﷺ قد مات»[(١)].

ولما أرادُوا غسلَ النبي ﷺ اختلفوا فيه، فقالوا: والله ما ندري كيف نصنع؟ أنُجَرِّدُ رسولَ الله ﷺ مِن ثيابه كما نُجرِّد موتانا، أم نُغَسِّلُهُ، وعليه ثيابُه؟ فلمَّا اختلفُوا ألقى الله عز وجل، عليهم النومَ حتى ما مِنهم رجل إلا وذَقْنُهُ في صدرِهِ، ثم كلَّمَهم مُكلِّم من ناحيةِ البيت لا يدرُونَ مَن هو، فقال: أن اغسِلوا النبي ﷺ وعليه ثيابُه، فقامُوا إلى رسولِ الله ﷺ فغَسّلوه، وعليه قميصُه، يصبُّون الماءَ فوق القميصِ، ويدلكونه بالقميص دون أيديهم، وكانت عائشةُ رضي الله عنها تقول: «لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما غَسَلَه إلا نساؤه»[(٢)].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «غَسَّلْتُ رسول الله، فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ ما يكون من الميت فَلَمْ أَرَ شيئا، وكان طَيِّبًا ﷺ حيا وميتا»[(٣)]. وكُفِّنَ رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بِيضٍ سَحُولِيَّةٍ[(٤)]، مِنْ القُطْن، ليس فيها قَمِيصٌ، ولا عمامة[(٥)].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: مرض النبي ﷺ، ووفاته، رقم الحديث (٤٤٥٤).

(٢) رواه أبو داود في سننه، كتاب الجنائز، باب: في ستر الميت عند غسله، رقم الحديث (٣١٤١)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٢/١).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الجنائز، (١٣٣٩)، وصححه ووافقه ابن الملقن في البدر المنير (٢٠٠/٥).

(٤) سَحولِيَّة: سحول: قرية باليمن تنسب إليها الثياب، وقيل: السَّحولية: المقصورة؛ كأنها نُسبَتْ إلى السحول، وهو القصَّار؛ لأنه يَسْحَلُها، أي: يغسلها. انظر: جامع الأصول، لابن الأثير (٧٦/١١).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب: الثياب البيض للكفن، رقم الحديث=

وقال الناس لأبي بكر ﷺ: «يا صاحب رسول الله، أَنُصَلِّي عَلَى رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قالوا: كيف نُصلِّي عليه؟ قال: يَدْخُلُ قومٌ فَيُكَبِّرُونَ، وَيَدْعُونَ وَيُصَلُّونَ، ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ، وَيَجِيءُ آخرون، حتى يَفْرُغُوا»[1].

ثم دُفِن رسول الله ﷺ وكان ذلك اليوم أشدّ الأيام سوادًا ووحشةً ومصابًا على المسلمين؛ قال أنس بن مالك ﷺ: «لَمَّا كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أَضَاءَ منها كلُّ شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كلُّ شيء، وما نَفَضْنَا عن رسول الله ﷺ الأيدي، وَإِنَّا لَفِي دفنه حتى أَنْكَرْنَا قلوبَنا»[2].

وفارق رسول الله ﷺ الدّنيا و(ما ترك دينارا، ولا درهما، ولا عبدا، ولا أَمَة، إلا بَغْلَتَهُ البيضاء التي كان يَرْكَبُهَا، وسلاحه، وأرضا جَعَلَهَا لابن السبيل صدقة)[3].

إنّ العَين لَتَدْمَع، وإنّ القلب لَيَحزن، وإنا على فراقك يا رسول الله لمحزونون، اللهم اجمعنا بالحبيب المصطفى ﷺ مع النبيين والصديقين.

***

الدروس المستفادة

- الموت نهاية كل حَيّ، ويستوي فيه كل البشر، كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم، حتى الأنبياء والرسل.

=(١٢٦٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب: في كفن الميت، رقم الحديث (٩٤١).

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٥٧/٧)، (٦٣٦٧). وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١٤٦/١): «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات».

(٢) رواه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب في فضل النبي ﷺ رقم الحديث (٣٦١٨)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٦٨١).

(٣) البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم الحديث (٤٤٦١).

- التحذير الشديد من اتخاذ المساجد على القبور ؛ سدًّا لذريعة الشرك.

- أهمية الصلاة ؛ وعِظَم شأنها، فهي عمود الإسلام، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة.

- تعظيم حقوق المماليك والخدم ونحوهم من الضعفاء، فالنبي ﷺ أوصى بهم، وهو يفارق هذه الدنيا.

- في تقديم أبي بكر الصديق رضي الله عنه على غيره في إمامة الصلاة دليل على أفضليته على جميع الصحابة رضي الله عنهم، وتنبيه على أنه أحق بخلافة رسول الله ﷺ[1].

- فضل عائشة رضي الله عنها على غيرها من أزواج النبي ﷺ ؛ حيث اختار ﷺ أن يُمَرَّض في بيتها.

- مُصاب المسلم بالنبي ﷺ لا يعدله مصاب ؛ فإذا أصيب أحد بمصيبة فليتذكر مصابه بالنبي ﷺ فإن مصيبته تهون عليه.

***

أخي الطالب/أختي الطالبة:

للتوسع في موضوعات هذه الوحدة ينظر إلى:

١ – صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ، ووفاته.

٢ – السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري.

٣ – الرحيق المختوم للمباركفوري.

***

(١) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي (٤/١٣٧).

الخاتمة

في ختام هذا المقرّر نحمد الله أن أتمه على خير، ونسأل الله أن يكون محققا للفائدة التي وُضِع من أجلها.

ونختم هذا الكتاب بأهم الفوائد والنصائح التي نستقيها مما جاء فيه من المعارف والعلوم الشريفة، ومن ذلك ما يأتي:

- أن السيرة النبوية من أهم المعارف التي يجدر بالطالب أن يبذل وقته في تحصيلها، لما فيها من المنافع الدنيوية والأخروية، حيث كانت السيرة ولا زالت مرجع الهدايات، ومصدر الأحكام والتشريعات، وتطبيقا عمليا لما جاء به رسول الله ﷺ من الهُدى والحق.

- أن التوكل على الله لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب، فقد علمنا الرسول ﷺ في سيرته الحرص على الجمع بينهما، ومن الأسباب التي كان يأخذ بها ﷺ جمع العدة وأخذ الأهبة سيما للأمور المهمة، والإكثار من الدعاء لله تبارك وتعالى، واستشارة أهل الخبرة من أصحابه.

- قدَّم الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم درسا عمليا من خلال أحداث السيرة يستفيد من المسلمون في تغيير السلبيات الاجتماعية، وتحرير الناس من العادات المنحرفة والخرافات المتجذرة، فقد وضع ﷺ منهجا قويما لتحقيق ذلك وسار عليه أصحابه رضي الله عنهم فصنعوا الحضارة التي شملت العالم بخيراتها، ولو أخذ المسلمون بهذا المنهج وساروا على الطريق التي سلكها النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم فلن يعوقهم في

إصلاح مجتمعهم المعاصر شيء بعد توفيق الله لهم.

- الإنسان مهما تحقق له من أساب العلم والغنى فإنه لن يحيط بكل شيء، ومن ثم فعليه أن يوثق علاقاته بكل من حوله، وأن يطلب المشورة من كل ذي خبرة وعلم فيما يتقنه من الأمور، وقدوتنا في هذا الرسول ﷺ وهو المعصوم الرسول، حيث كان يستشير أصحابه رضي الله عنهم ويأخذ بنصائحهم في الأمور التي لم يوحى إليه فيها.

- الأُمَّة الإسلامية تمتلك بشريعتها الإلهية أسباب النهضة، ولا ينقصها لتحقيق السيادة إلا توثيق العلاقة بالله، والعمل بما جاء في شريعته، فيوم أن كان المسلمون جمعا حول رسوله ﷺ يتلقون الشريعة بشغف، ويعملون بما فيها، ولا يتركون شاردة ولا واردة، ويبذلون الجهد والوسع، ويطلبون العون من الله؛ استطاعوا أن يقيموا دولة مترامية الأطراف، وأن يدحروا كل باطل وشرك، وأن يقوموا بحق الدين بنشره في ربوع الأرض.

- الدعوة الإسلامية هي دعوة الخير والأمن والسكينة، مهمتها رفع راية التوحيد، وتحقيق الأمن في الأرض، والحفاظ على حياة الناس، ولذا عفا رسول الله عن أهل مكة بالرغم مما زاقه منهم من الظلم والأذى، وأَمّنَهم في بيوتهم وأموالهم واكتفى بتطهير البيت الحرام من الأوثان، وهذا هو الفعل الذي يتوافق مع غاية الشريعة التي جاءت لحفظ النفس والمال والدين، فحري بالشباب المسلم أن يدرك هذه المقاصد ويطبقها في حياته.

***

قائمة المراجع

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد البر (المتوفى: ٤٦٣هـ) المحقق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(٢) أشرف الوسائل إلى فهم الشّمائل، لأبي العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي الأنصاري (المتوفى: ٩٧٤هـ). الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، تحقيق: أحمد بن فريد المزيدي.

(٣) ألفية السيرة النبوية، زين الدين عبد الرحيم العراقي (المتوفى: ٨٠٦هـ) الناشر: دار المنهاج - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٦هـ.

(٤) إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تقي الدين المقريزي (المتوفى: ٨٤٥هـ)، المحقق: محمد عبد الحميد النميسي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٥) البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ). الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي.

(٦) البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، لأبي حفص سراج الدين، عمر ابن علي بن أحمد الشافعي المصري (المتوفى: ٨٠٤هـ). الناشر: دار الهجرة للنشر والتوزيع - الرياض - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، تحقيق: مصطفى أبو الغيط، وعبد الله بن سليمان، وياسر بن كمال.

(٧) تاج العروس من جواهر القاموس، لأبي الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، المعروف بمرتضى الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ). الناشر: دار الهداية.

(٨) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ). الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري.

(٩) التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج (المتوفى: ١٤٢٠هـ). الناشر: دار با وزير للنشر والتوزيع، جدة – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

(١٠) تفسير القرآن العظيم، المعروف بتفسير ابن كثير، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ). الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م، تحقيق: سامي بن محمد سلامة.

(١١) تلبيس إبليس، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ). الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

(١٢) تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ). الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

(١٣) حاشية السندي على سنن ابن ماجه، أبو الحسن، نور الدين السندي (المتوفى: ١١٣٨هـ)، الناشر: دار الجيل، بيروت، بدون طبعة.

(١٤) الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري (المتوفى: ١٤٢٧هـ)، الناشر: دار الهلال – بيروت، الطبعة: الأولى.

(١٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين م الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

(١٦) سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي (المتوفى: ٩٤٢هـ) تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

(١٧) السنن الصغرى للنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

(١٨) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، لأبي شُهبة محمد بن محمد بن سويلم (المتوفى: ١٤٠٣هـ). الناشر: دار القلم – دمشق، الطبعة الثامنة – ١٤٢٧هـ.

(١٩) السيرة النبوية، لأبي الحسن علي الحسني الندوي (المتوفى: ١٤٢٠هـ). الناشر: دار القلم – دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.

(٢٠) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، لأبي عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين الزرقاني المالكي (المتوفى: ١١٢٢هـ). الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

(٢١) شرح السنَّة، لأبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي (المتوفى: ٥١٦هـ). المكتب الإسلامي – دمشق، الناشر: بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، – ومحمد زهير الشاويش.

(٢٢) صحيح ابن حبان، لأبي حاتم محمد بن حبان البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ). ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩هـ). الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، تحقيق وتخريج: شعيب الأرنؤوط.

(٢٣) صحيح ابن خُزَيمة، لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة السلمي النيسابوري (المتوفى: ٣١١هـ). الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م، تحقيق: الدكتور محمد مصطفى الأعظمي.

(٢٤) صحيح البخاري، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (المتوفى: ٢٥٦هـ). دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٢٥) صحيح مسلم، لأبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ). الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢٦) الطبقات الكبرى، لابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ). الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م، تحقيق: إحسان عباس.

(٢٧) العبر في خبر من غبر، لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ). دار الكتب العلمية – بيروت، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول.

(٢٨) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لأبي محمد بدر الدين محمود بن أحمد العينتابي العيني (المتوفى: ٨٥٥هـ). الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢٩) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، لأبي الفتح محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، اليعمري الربعي(المتوفى: ٧٣٤هـ). الناشر: دار القلم – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م، تعليق: إبراهيم محمد رمضان.

(٣٠) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ). الناشر: دار المعرفة – بيروت، سنة النشر: ١٣٧٩هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب.

(٣١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ). الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية – المدينة النبوية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م، تحقيق: محمود شعبان، وآخرون.

(٣٢) الفصول في السيرة، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ). الناشر: مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ، تحقيق وتعليق: محمد العيد الخطراوي، محيي الدين مستو.

(٣٣) فقه السيرة النبوية، منير محمد الغضبان (المتوفى: ١٤٣٥هـ)، الناشر: جامعة أم القرى، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

(٣٤) فقه السيرة، محمد الغزالي السقا (المتوفى: ١٤١٦هـ)، الناشر: دار القلم – دمشق، تخريج الأحاديث: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ.

(٣٥) القاموس المحيط، لمجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (المتوفى: ٨١٧هـ). الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسُوسي.

(٣٦) القول المبين في سيرة سيد المرسلين، لمحمد الطيب النجار (المتوفى: ١٤١١هـ). الناشر: دار الندوة الجديدة بيروت – لبنان.

(٣٧) الكامل في التاريخ، لأبي الحسن، عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري، الشهير بابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ). الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري.

(٣٨) لسان العرب، لأبي الفضل محمد بن مكرم بن على، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ). الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة – ١٤١٤هـ.

(٣٩) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ). الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر: ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م، تحقيق: حسام الدين القدسي.

(٤٠) المجموع شرح المهذب، محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، الناشر: دار الفكر.

(٤١) مختار الصحاح، لزين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي. الناشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م، تحقيق: يوسف الشيخ محمد.

(٤٢) مختصر إظهار الحق، لمحمد رحمة الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني الهندي (المتوفى: ١٣٠٨هـ). وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، تحقيق واختصار: محمد أحمد عبد القادر ملكاوي.

(٤٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لأبي الحسن علي بن سلطان محمد، الهروي القاري، المعروف بالملا علي قاري (المتوفى: ١٠١٤هـ). الناشر: دار الفكر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

(٤٤) المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥هـ). الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

(٤٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل. الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، – وعادل مرشد، وآخرون.

(٤٦) مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري الشافعي (المتوفى: ٨٤٠هـ). دار العربية – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ. تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي.

(٤٧) معالم التنزيل في تفسير القرآن، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ). الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م، تحقيق وتخريج: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش.

(٤٨) المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي، الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ). الناشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة الثانية، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي.

(٤٩) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢ه.

(٥٠) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية لأبي العباس، شهاب الدين، أحمد بن محمد بن أبى بكر القسطلاني (المتوفى: ٩٢٣هـ). المكتبة التوفيقية، القاهرة – مصر.

***

المحتويات

المحتوى	الصفحة
۞ **المقدمة**	٣
۞ **الوحدة الأولى: مفهوم السيرة النبوية ومصادرها، وحال العرب قبل البعثة**	٥
• تعريف السيرة النبوية ومصادرها وفوائد دراستها	٦
• حال العرب قبل البعثة	٧
• شرف مكة، ومنزلتها عند العرب	١٢
۞ **الوحدة الثانية: مولد النبي المصطفى ﷺ وما سبقه من مبشرات**	١٧
• إرهاصات النبوة	١٨
• نسب الرسول ﷺ وولادته ورضاعته	٢٢
۞ **الوحدة الثالثة: حياته ﷺ من الطفولة إلى البعثة**	٢٩
• نشأته ﷺ يتيما	٣٠
• عمله ﷺ بالرعي والتجارة	٣١
• مشاركته ﷺ في الأمور العامة	٣٤
• حفظ الله تعالى لنبيه ﷺ قبل البعثة	٣٧
۞ **الوحدة الرابعة: بعثة النبي ﷺ وبدايات الدعوة**	٤١
• نزول الوحي ومراحل الدعوة	٤٢
• المسلمون بين هجران الديار ومرارة والحصار	٤٦
• عام الحزن ومحنة الطائف	٤٨
۞ **الوحدة الخامسة: من رحلة الإسراء والمعراج إلى الهجرة النبوية**	٥٣
• معجزة الإسراء والمعراج	٥٤

المحتوى	الصفحة
• عرضه ﷺ الإسلام في المواسم ومبايعة أهل يثرب له	٥٦
• هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة	٥٩
۞ **الوحدة السادسة: أحداث وتشريعات شكلت ملامح المجتمع الإسلامي في المدينا**	٦٥
• بناء المجتمع المسلم	٦٦
• أحداث وتشريعات مهمة في الدولة الإسلامية الجديدة	٦٨
۞ **الوحدة السابعة: الغزوات والسرايا الأولى**	٧٧
• غزوة بدر الكبرى	٧٨
• غزوة أحد	٨٢
۞ **الوحدة الثامنة: غزوات: بني النضير، والخندق، وبني قريظة**	٨٩
• غزوة بني النضير	٩٠
• غزوة الخندق	٩٢
• غزوة بني قريظة	٩٧
۞ **الوحدة التاسعة: صلح الحديبية وأثره في بداية الدعوة العالمية**	١٠١
• صلح الحديبية	١٠٢
• مكاتبة الملوك والأمراء، ودعوتهم إلى الإسلام	١٠٨
۞ **الوحدة العاشرة: غزوة الفتح**	١١٣
• سبب غزوة فتح مكة والاستعداد لها	١١٤
• فتح مكة وإعلان العفو العام	١١٩
۞ **الوحدة الحادية عشرة: غزوة تبوك وحجة الوداع**	١٢٥
• غزوة تبوك	١٢٦
• حجة الوداع	١٢٩

المحتوى	الصفحة

- **الوحدة الثانية عشرة: مرض الرسول ﷺ ووفاته** ١٣٧
  - مقدمات الوفاة ١٣٨
  - مرض النبي ﷺ ووفاته ١٣٩
  - تجهيز الجسد الشريف ودفنه ﷺ ١٤٤
- **الخاتمة** ١٤٩
- **قائمة المراجع** ١٥١
- **المحتويات** ١٥٩

* * *